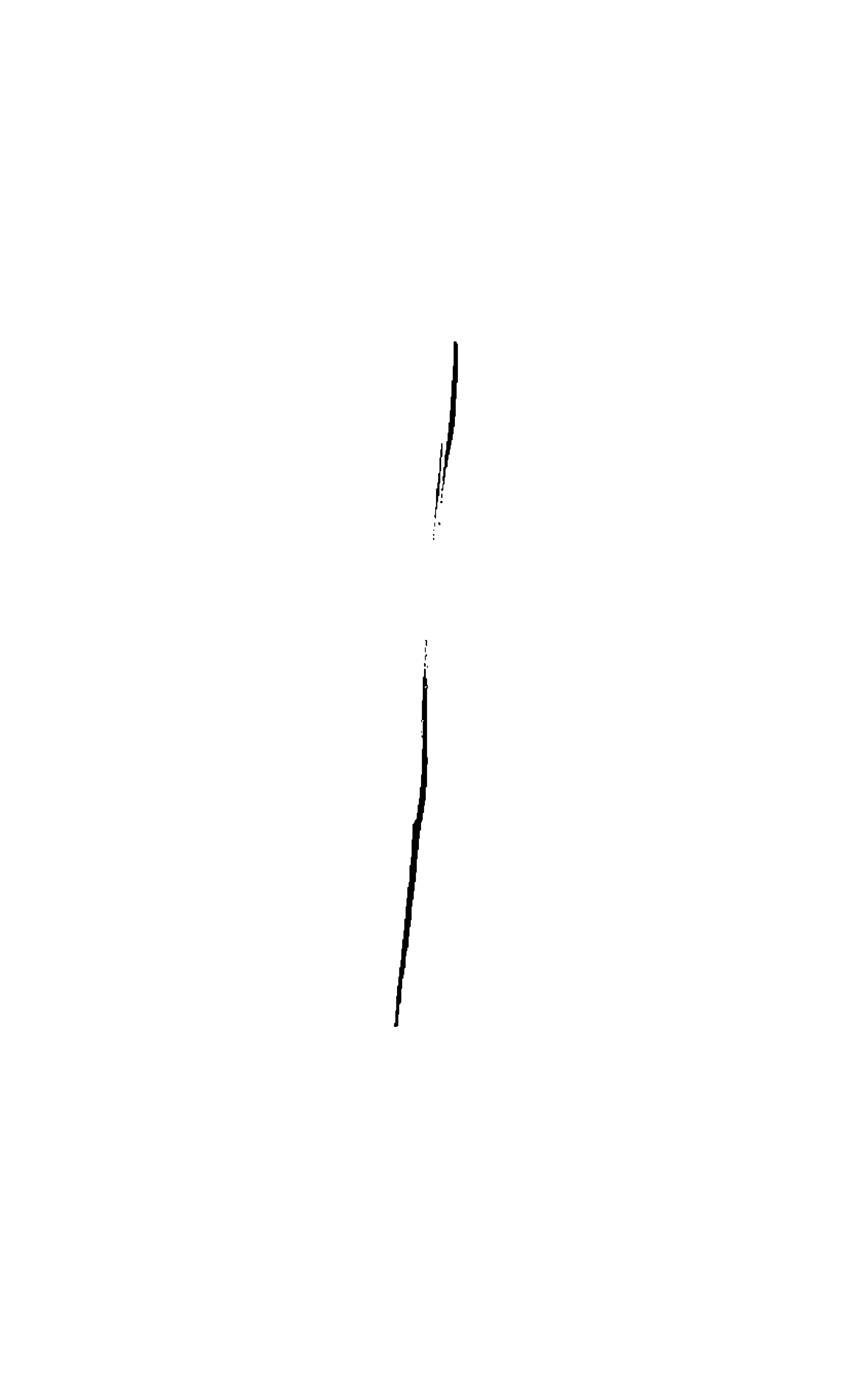

إغراء
ناجي جبر
عمر خورشيد
نجاح حفيظ
أموت مرتين وأحبك
تصوير وإخراج
جورج لطفي الخوري
عبد العزيز هلال
من يحب الفقر



عبد العزيز هلال

مَن يُحبّ الفقر؟

رواية

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق ـ ١٩٧٤

عروسان يحلمان بفروج مشوي

« ١ »

هدأ الصخب   وهدأت المرئيات كذلك   إنها القيلولة

لكن حركة الهواء بدأت تنشط   وتسف أوساخ الطريق الى باحة المكتب الصغيرة   هذه الاوساخ هي الشيء الوحيد الذي حفظ الصلة بين حيّ كفرسوسة وبين حيّ أبي رمانة

أمره سيده برش الرصيف بالماء   فنهض بحماسة الاجير الجديد ، أخذ الخرطوم ، وصله بالحنفية ، وجعل يرش الرصيف والاسفلت   وهو يرامق شرفات البيوت ونوافذها اللامعة بأشعة الشمس

لقد راقب هذه الشرفات بصورة خاصة   خلال اليومين

الماضيين ونادراً ما رأى أصحابها كان يرى سكان البنايات يدخلون ويخرجون منها لكنه لم ير غير أطفالهم وخادماتهم وهم يظهرون على الشرفات دقائق قليلة فكر أكثر من مرة « لو كنا أنا وظفيره نقيم في احدى هذه الشقق لقضينا على الشرفة ساعات حلوة »

نهره صوت يطلب منه الحذر فحوّل اتجاه الماء ومر به رجل هرم يرتدي من الثياب ما يرتديه قدماء كفرسوسه... دخل المكتب العقاري بخطوات متئدة وسمع حمدي صوت سيده يرحب به ترحيباً حاراً وبحفاوة غريبة

إنها حفاوة غريبة بالفعل من رجل كسيده فوزي برجل وضيع كالذي دخل المكتب بدا له بالاحرى واحداً من هؤلاء المساكين الذين يترددون على مخازن التجار لينالوا نصيبهم من الزكاة في مواسمها

أغلق حمدي الحنفية وحمل الخرطوم الى مكانه في خلفية الدكان وهو يرمق الرجل الطارىء بفضول كان فوزي مسترسلا في ترحابه ثم أمر حمدي بصخب

– عجل بقدح من الشاي لعمك أبي قسّام

تأكد لديه أن الضيف لا بد أن يكون من أقرباء سيده ذلك أن حمدي عرف عن سيده فوزي رغم مظاهر الغنى ورشاقة الكلام انه في الاصل رجل فقير من الريف كما يقولون ، كان رجلا بسيطاً ، ارتفع نتيجة شطارته ، خاصة بعد أن عمل سمساراً عقارياً في حيّ أبي رمانة هذا

ترك حمدي الابريق على الموقد ووقف على مدخل الخلفية.

يراقب الرجلين كان أبو قسّام قد أخرج علبة تبغ من التنك، وجعل يلف سيكارة وهو يتربع على الكرسي منحنياً متكوراً مثل القنفذ

ـ اتصلت بك لأمر هام

قال فوزي بلهجة مثيرة لكن أبا قسام ظل متقنفذا في جلسته يلف السيكارة بحذر شديد وقال فوزي

ـ أبو عبده تعرفه انه اليوم من أكبر تجار البناء في البلد أعماله توسعت حتى أصبح وحده يوازي شركة في راسماله وأعماله

يلذ لحمدي أن يسمع قصص هذا العالم الذي لم يعرفه من قبل بالرغم من أن كفرسوسه أصبح ضمن تنظيم مدينة دمشق ولم يعد قرية كما كان قبل سنوات قليلة الا أنه لم يخرج من نطاقه إلا ليتمشى فضولياً في شوارع دمشق الرئيسية أو ايدخل احدى دور السينما التي تعرض الافلام العربية والهندية فما هي قصة هذا التاجر الذي يوازي وحده شركة ؟

لكن أبا قسام لم تثره القصة صرخ فوزي

ـ انظر إليّ واسمع ما أقول

قال أبو قسام ببرود مهتماً بالسيكارة

ـ انني أسمعك

صرخ فوزي

ـ يا أبا قسام ، العين مغرفة الكلام اترك هذه السيكارة من يدك خذ هذه سيكارة مَلِكِيّة

وقدم له سيكارة أمريكية الا أن أبا قسام تشبث بوضعه جميعا ، وقال

ـ انا لا اغيّر

ـ لا تغيّر ؟ أم أنك لا تريد أن تتذوق ماهو لذيذ وغال ، حتى لا تتقزز نفسك مما هو كريه ورخيص ؟ اترك هذا التبغ ، انه لا يلائم صحتك لمن تجمع هذه الثروة كلها ؟ انك على حافة قبرك تمتع قبل فوات الاوان

تساءل أبو قسام

ـ أأنت سمسار عقار ، أم سمسار تبغ ؟

ضحك فوزي بمرح وضحك حمدي دون وعي وكان الفضول قد تطاول اليه وشده الى أبي قسام شداً قوياً بعد أن لمّح سيده الى انه يملك ثروة كبيرة أيمكن أن يصدق ؟

قال فوزي

ـ المهم أبو عبده يريد قطعة الارض التي بقيت لديك.

ولحم أبو قسام اخيراً ورقة السيكارة أمسكها بفمه وأخرج ولاعة عتيقة تعمل بالبنزين أشعل السيكارة ونفث الدخان ببطء وتأمل السيكارة ولاحظ حمدي وجهه الداكن الأعجف وعينيه الضيقتين من اثر التحديق بهما على هذا النحو سنين عمره كلها وكان طربوشه قذراً يؤطره العرق المزمن في الاسفل باطار داكن يقارب السواد

وتساءل فوزي

ـ ماذا قلت أبا قسام ؟

قال الرجل

ـ انني لا أفكر ببيعها الآن

ـ لماذا ؟

ـ أسعار العقارات ترتفع كل يوم

ـ المعنى ؟

ـ افكر بتركها حتى السنة القادمة يمكن أن تباع بضعف سعرها الآن

ـ لن تمهلك الحكومة

وأطرق أبو قسام قال فوزي

ـ منذ أربع سنوات تجاوز البناء أرضك هذه الى ألف متر بعدها وأنك تعرف للأرض الواقعة في منطقة معمورة مهلة معينة إما أن تُعمَّر أو يدفع صاحبها جزية للحكومة، وبالاضافة يجبر على بيعها

وبدا أبو قسام وهو يفكر وأمهله فوزي ودخل حمدي الخلفية يلقّم الابريق بالشاي ويطفيء الموقد ويحضّر الاقداح

ـ ماذا قلت يا أبا قسام ؟

قال أبو قسام

ـ بكم يريدها أبو عبده

ـ يريد أن يسمع قولك

واعتكف أبـو قسام مرة أخرى مـع التفكير واحضر حمدي الشاي وقدم للضيف قدحاً وللسيد قدحاً وخص نفسه بقدح وانتظر جـواب الرجل بلهفة فوزي نفسـها مستثاراً كما تثيره الافلام البوليسية

ـ ماذا قلت يا با قسام ؟

تململ أبو قسام ورشف من الشاي رشفتين وأخرج علبة الصفيح فتحها وأخرج دفتر الاوراق اقتطع ورقة طواها ووضعها بين اصبعين أخذ مقداراً من التبغ الداكن ، بلونوجههويديه وضعهفيحضن الورقة وأخذ يفرشه بهدوء

ـ الا تريد أن تبيع ؟

ـ بـلى

ـ بكم ؟

ـ بمئتين وخمسين

فكر حمدي في كفرسوسة قبل عشر سنوات كان سعر المحضر السكني الواحد خمسمئة ليرة والآن بلغ مئة ألف فكيف يكون في أبي رمانة مئتين وخمسين ؟

وفي الوقت نفسه هتف فوزي مستنكراً

ـ بـكم ؟

ـ سمعتني

ـ ولكن يا أبا قسام هذا السعر ليس معقولا
وقال حمدي لنفسه « الم اقل لك ؟ ليس معقولا »

وتابع فوزي

ـ أعرف أن الاسعار ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً اليوم،وبلغت ارقاماً خيالية ولكن ليس الى هذا الحد

وتساءل حمدي أيحاول التدليس على الرجل ؟

وقال أبو قسام
ـ هذا هو سعري

وتدخل حمدي دون وعي
ـ في كفرسوسة تساوي مئة ألف ليرة

لم يلتفت إليه أحد قال فوزي
ـ اسمع يا أبا قسام أنـــا لا مصلحة لي انني مجرد وسيط تريد أن تبيع حقاً أم أنك تتعذر ؟

ـ أبيع ولكن بما أريد
ـ طبعاً بما تريد ولكن بالمنطق والمعقول
ـ أنا حر في أرضي أبيعها بالسعر الذي يرضيني انا

ـ إنها صغيرة وتقع في منطقة لا يسمح فيها الا بعمار طابقين وراجع
ـ وقبو ٠

ـ حسناً وقبو ما الذي يعنيه هذا ؟

ونهض أبو قسام

ـ إلى أين

ـ لم أُصلِّ العصر بعد يجب أن أتدارك الصلاة

ـ ولكننا لم نصل الى نتيجة بعد

ـ انتهى الكلام بالنسبة لي

وخرج أبو قسام بخطواته الوئيدة يجرجر ذيل شِرْواله الاسود وبعد غيابه أطلق فوزي شتيمة قذرة خلفه. والتفت الى حمدي

ـ أترى هـذا الاجرب ؟ إنـه يملك عمارتين وثروة من النقود .

احس حمدي بأهميته لأن سيده يخاطبه كذلك ولكن فضوله جعله يقف مثل أبله

ـ من أين له ذلك ؟

ـ إنه من أصحاب البساتين سابقاً

لم يفهم حمدي لأول وهلة استطرد فوزي

ـ كانوا يبيعون أكبر بستان بعشرة وحين دخلت البساتين في التنظيم العمراني قفزت أسعارها فجأة ذو العشرة بيع بنصف مليون هذا واحـد منهم إنـه يسكن في قبو احدى عمارتيه قبو معتم ورطب مثل القبر

وفجأة أدرك حمدي ان السعر الذي جرى فيه النقاش هو مئتان وخمسون ألفاً وليس مئتين وخمسين فقط ففي كفرسوسة لم يعتد الناس على الاستهانة بالارقام الى هذ الحد .

« ٢ »

في كفرسوسة كانت ظفيره نجمة النجوم ، إن لم تكن قمرها.
حين رآها حمدي لأول مرة شهق ، وفغر فاه وجحظت عينـاه
وحسبته ظفيره حينئذ مجنوناً فذعرت وشحب لون وجهها
الوردي الذي تضاهي كل وجنة فيـه تفاحة ناضجة من تفاح
الزبداني وتعجب حمدي وسبح الله كانت ظفيرة فتاة صغيرة،
وكان حمدي عائداً من الخدمة العسكرية عاطلا يبحث عن
عمل فأصيب بالحسرة عاناها طويلا وهو يبحث عن عمل.
ثم وهو ينتقل من عمل وضيع الى عمل وضيع آخر..لا تكفيه أجرته
سدً رمق. لكنه تزوج ظفيرة في النهاية. فلم يكن أهلها أفضل منه.
ولم تكن هي مغرورة غرور بنات دمشق. فرغم دخول كفرسوسة
في تنظيم مدينة دمشق ظل سكان الحي الاصليون متواضعين
تواضع القرويين

وليلة الزفاف كانت ظفيرة أجمل من بنات دمشـق بعد
الحمام الساخن ، وبالزينة وثوب الزفاف الابيض لكن حمدي
لم يشهق هذه المرة ويفتح فمه مثل المجانين بل شعر
بنشوة تملأ عروق الدم كلها تفعم رأسه وقلبه معاً بصورة
حورية من حوريات الجنة

وحين تعرت ماتت كل الصور وبقيت ظفيرة فما
كان في مقدور حمدي أن يتصور ما هو أروع من حوريات الجنة.
وكان جسد ظفيرة مجموعة من الاقمار مصهورة تحت جلدهـا
الناعم أصيب حمدي بالوجد فمرت ثلاثة أيام بلياليها
حتى تمكن من إثبات رجولته ومنذ اليوم الرابع تحولت نكهة
الحياة التافهة في أيام حمدي الى نكهة خاصـة فريدة هي

خليط من رائحة جسد ظفيرة ومذاقه ومن المشاعر السحرية التي يعانيها كلما اعتنق ظفيرة الصغيرة

كانت له حياة سحرية ، رغم أنها كانت في نظر أهله شؤما·

فقد تعطل عن العمل بعد زواجه منها بأيام وظل أياما وأياما دون عمل وباعت ظفيرة حليها القليلة الهزيلة لتستمر رائحة الطعام في البيت قائمة تقهر نظرة حماتها وأبناء حموها وسلفاتها

وها هو حمدي أخيراً يعمل في مكتب عقاري مقابل ثلاث ليرات في اليوم ومع أن ظفيرة فرحت وشعرت بالحصار يتلاشى من حولها إلا أنها علقت بعفوية الاطفال

- أليست قليلة ؟ ثلاث ليرات لطعامنا وحده

قال حمدي وهو يغمر روحه في عينيها

- هناك الاعطيات أيضاً كل من نبيع له عقاراً ومن يشتري يعطينا يعطي السيد فوزي عمولة ويعطيني اكرامية·

هتفت

- كم
- بحسب قيمة الصفقة
- تقريباً ؟
- تقريباً··يجوز خمس ليرات أو مئة·حسب قيمة الصفقة·

وتأملته ظفيرة وتأملها · ثم سألها

- الست راضية ؟

قالت

ـ بلى   أنت بخير، ووجدت عملا، هذا مهم   انني سعيدة.
ـ ظفيرة   أأنت راضية ؟
ـ كل الرضا   لماذا تسأل ؟
ـ لأطمئن
ـ هل اطمأننت الآن ؟

سألت مبتسمة الثغر والعينين   ورأى في وجهها مهرجان أزهار ونجوم تهمي من السماء

وأفاق على صياح الديك لدى جيرانه   وشم رائحة القهوة تنضج   فتنفس بعمق   فاذا برائحة أخرى تعبق من الفراش فعانقه بوَلَه   حتى دخلت ظفيرة تحمل اليه القهوة ورأى آثار تعب واضحة تفسد عينيها   عندئذ تذكر انهما منذ ثلاثة أشهر عاشا متقشفين   رغم أنها الاشهر الثلاثة الاولى من عمر زواجهما   عروسان   ياربي   عروسان !

ـ أأنت مهموم ؟
ـ لا
ـ شارد ؟
ـ يجوز
ـ في   أبي رمانة ؟
ـ أنت أحلى من نساء أبي رمانة
ـ كذاب
ـ وحق عينيك أنت أحلى من نساء الدنيا كلها
ـ عينيّ اللتين شردت عنهما ؟
ـ بل شردت بسببهما
ـ أين ؟

– مع عروسين يعيشان مثل الشحاذين

ضحكت بمرح ، اختفت تلك الآثار حول عينيها وتحولت عيناها الى نجمتين ، وكان ثغرها حديقة أزهار ، سقطت خلفها أحياء العالم كلها ، كفرسوسة وابو رمانة وكل حيّ في العالم
وكان حمدي منـــذ ليلة الزفاف يعيش فريسة شعور عجيب ، في لحظات كهذه كلما اقبل على ظفيرة واقبلت عليه ، الشعور بانه سيموت لحظة تمام الوصال ستخرج روحه من جسده لتدخل جسد ظفيرة وتخالط روحها ولم يكن هــذا الشعور إلا دافعاً أقوى يدفعه الى حضن ظفيرة ويضاعف رغبته في وصال أبدي

وظفيرة ليست ثرثارة كانت تلوذ بصمت كامل وهــو يعانقها تحس بقوة وتعيش هــذا الاحساس بكل حياتها وهي تسمع هذيانه المحموم مثل رجل يحتضر بالفعل وإذ يفطن احياناً ويسألها تقول

– إنني أحب ما تفعله ، واستمتع به أكثر حين أكون صامتة.

– لماذا ؟

– لا أدري . أحس بأن الكلام يفسد عليّ كمال الاحساس. وبصمتي أحس أنني أعيش ذلك

– كيف أعلم اذن بأنك تعطيني بأنك لي ، بأنك معي تماماً.

– أحبك . وأنا لك وحدك كما أنك لي وحدي

وبعد هذا لا يكون أي سؤال تنتابه حالة الوجد وهو يحملق في استدارات الاقمار التي تجمعت في هذا التشكيل الذي يسمى ظفيرة عاريةً !

بلى   سؤال أخير ، يوجهه الى نفسه

ـ أهذا كله ، لي وحدي؟!

ويحس عندئذ بعذوبة الموت   بروعة الموت

« ٣ »

وفار السيد فوزي بالغضب • وزمجر

ـ ما الذي أخّرك عن فتح المحل ؟

قال حمدي باتضاع

ـ المواصلات يا سيدي

ـ هذه ليست حُجَّة أقبلها   عليك أن تفهم بأن كل تقاعس يبدر منك يمكن أن يؤدي الى طردك من العمل

واسترسل يزمجر   ولكن بكلمات أخرى مُهينه

على أن حمدي أحس بالامتنان من الله   لان السيد فوزي ضعيف حاسة الشم   والا لادرك سبب تأخره   كل حركة من حمدي كانت تهيج رائحة علقت به من حديقة الاقمار تلك وتعيد إلى عينيه صورة ظفيره   كما تركها أخيراً ، في غرفتهما مستلقية على الفراش   بعريها المروّع ، كأنه إشراقة شمس أمام عينين خارجتين من الظلمة   يا الله ! لشد ماهي رائعة هـذه المرأة الصغيرة ! رائعة وناعمة !

ونهره فوزي آمراً

ـ نظف المحل بسرعة

وخرج دون أن يخبره بوجهته ، كما يفعل دائماً

عمد حمدي الى المذياع ، عالجه حتى حصل على أغنية مرحة الايقاع ثم تحول الى تنظيف المكتب العقاري من الغبار وآثار السكائر ، مشاركاً المغني غناءه • ولاحظ أن الشمس تنحسر عن واجهة المكتب شيئاً فشيئاً انها تؤكد لـه ـ بدل سيده ـ خطيئته الفاحشة في الحقيقة ، هو أحس بهذا الذنب وبهذا الاحساس واجه سيده وبه سكت على ما انهال عليه من ألفاظ سيده النابية لكن الرجل لا يستطيع أن يكون في آن واحـد رجلين إما أن يكون الرجل مع ظفيره واظفيره ، وإما أن يكون مع السيد فوزي ولخدمته

غمره إحساس بالتعاسة مفاجيء وكانت أغنية ثانيـة لكنها أقل مرحاً ، تذاع الآن امكتها وخرج يقف أمام باب المكتب ، حيث كان تيار الريح أقوى ، والاشياء مكشوفة وممتدة أكثر ، وحركة السيارات نشطة ، كذلك حركة الناس وكانوا في الاغلب طلبة مدارس من أعمار مختلفة يحملون حقائبهم ، ويتناقشون بأصوات عالية ، مرحة أو عاتبة لا تدل على أنهم ينوؤن بعب مسؤولية أو هم رغم أن بعض ما سمعه منهم يدل على أنهم يخوضون معركة الامتحانات النهائية لهذه السنة •

لكن إحساسه بالتعاسة ظل طاغياً ورغم حركة الشارع وازدحامه احس أيضاً بأنه وحده ما دام بعيداً عن ظفيره أو لا يدري قـد يكون السبب في أن أحداً ممن عبروا الطريق أمامه لم يكترث له شعر بالحاجة الى لقاء ظفيره

عروسان يا ربي عروسان !

سبحانك ! من أين لنا أن ندرك حكمتك ؟

ولكن لا عليك يا ظفيره باول اغطية أنالها من عميل سأشتري لك فروجاً مشوياً يرد العافية الى جسدك الغالي آه يا ظفيره ! أموت لكي تعيش ابتسامتك وعافيتك

وارتد حمدي الى خلفية الدكان يشعل الموقـد ويصنع الشاي بدافع شهوة مباغتة الى نكهته

ورجع السيد فوزي

ـ نظفت المكتب ؟

كان واضحاً أن حمدي قد نظفه ولكن لهجة السيد فوزي خاليـة من قسوة الغضب أو المناقشة إنها بالاحرى لطيفة منفرجـة

قال حمدي منشرح الصدر

ـ نعم وصنعت لك شايا أيضا

قال فوزي

ـ عشت والله إنك قبضاي

وزهزه المكتب بعبير الشاي ولونه الذهبي وتمتع حمدي برشفاته الساخنة الحلوة

قال فوزي ، كمن يؤكد موضوعاً سبق الحديث فيه

ـ هذا هو الصيف يا حمدي

تضاحك حمدي ببلاهة فتابع فوزي يفصح عن فكرته

ـ انـه موسمنا الزاهر غـداً تمتلىء دمشق بالمصطافين القادمين من الاقطار العربية ٠

ـ هل تربح منهم الكثير ؟
ـ ما يعادل ربح سنين دونهم

ومباشرة هدهدت أحلام حمدي زحمـة الاعطيـات قـدر ما أوحت به كلمات سيده الاخيرة وانفرج في أعماقه جرح يذكره بنفسه وابتسم نعم يا ظفيره سأعوضك عن حليّك بأثمن منها ٠ وسأل

ـ معلمي أتراهم يعطونني اكراميات مجزية ؟
ـ طبعاً الولد الذي كان يعمل عندي قبلك طلع من الصيفية الماضية بحوالي ثلاثمئة ليرة

وفي الحال رآها حمدي بعينيه واضحة زاهيـة المئات الثلاث ولم تلبث أن تحولت الى مئات من عصافير الفرحالملونة تتقافز في داخله مزقزقة حتى لشعر بأنها تعلو بهوتأخذهليمسح آثار الضنا عن عيني ظفيرة الخلابتين وتعود به حيث كان سيده فوزي يهب واقفاً صاخباً يرحب بعميل

ـ أهلا منير بك صباحنا مبارك بخطوتك العزيزة
ـ بارك الله بك سيد فوزي
ـ زارنا السعد تفضل بالجلوس هنا أرجوك

وأشار الى كرسي يجعله لأصحاب المكانة العالية لصق مكتبه٠ فجلس العميل شاكراً وكرر فوزي الترحاب ٠ وقدم له سيكارة فاخرة ، وأمر حمدي بتقديم قدح من الشاي ، مستدركاً

ـ أم تفضلون القهوة ؟

قال العميل دون اكتراث

ـ لا هذه ولا ذاك ، انما اريد أن اكلمك بكلمتين وامضي الى شأني عاجلا

ـ يا سيدي نريد أن نكسب شرف الجلسة

ـ آسف يا سيد فوزي دعنا نتكلم بالموضوع مباشرة ٠

ـ تفضل انني مصغ

وأصغى حمدي العميـل يريـد أن يخرج بعائلتـه الى الزبداني ، كما يفعل كل صيف ، حيث يصطاف في دارة يملكها هناك ، وفكر بأن الافضل تأجير شقته في دمشق مدة اصطيافه هتف فوزي

ـ والله انك تفعل عين العقل لم لا ؟ لا عيب في هذا إن أكابر البلد يفعلونه اليوم

ـ ولكن لي شرطاً هاماً ياسيد فوزي أن لا تؤجر الشقة إلا لعائلة راقية وقليلة العدد لا أريد عائلة كثيرة الأولاد

ـ فهمت، منير بك لا تحمل هذا الهم

ـ وشرطاً آخر

ـ تفضل

ـ أنت تعرف الشقة وتعرف فرشها

ـ بيتُ كرام وأمراء يا سيدي

ـ حسناً بكم تقدر قيمة إيجارها ؟

ـ بحسب التيسير

قال العمل مؤكداً

ـ بل اني لا أقبل باقل من ألفين كل شهر بألفين

قال فوزي

ـ اطمئن منك بك سأبذل جهدي

ونهض العميل منصرفا يودعه السيد فوزي بالحفاوة التي استقبله بها حتى اذا ما تم انصرافه ، ارتد فوزي الى مكتبه يضرب كفا بكف ويهتف

ـ اللهم الطف بنا لم يعد المرء يميز بين الناس اليوم الكل أصبح طماعاً لا يقنع بما لديه ولو كان مليونيراً

تساءل حمدي بنظرة حائرة عما يعنيه سيده قال فوزي:

ـ لو ملكت شقته لما أجرتها بمئة الف ليرة

وخاطب حمدي مباشرة

ـ تصور شقة فاخرة اشتراها بمئتي الف ليرة وفرشها بفرش ايطالي كلفه مئة الف ليرة تصور انه يريد أن يؤجرها للمصطافين طمعاً في عدة آلاف من الليرات لم يعد الناس يشبعون اللهم لطفك وعفوك !

لم يستوعب حمدي ما جاء من الوصف الرقمي للشقة إلا الناحية الرقمية واستدلاله بها الى أن منير بك من أصحاب الثروات الطائلة والى هـذا انصرف تفكيره وبسببـه أيـد سيده وقال

ـ الحق معك يا معلمي ثري مثله يطمع في عدة آلاف قد تخرب الفرش الذي يساوي مئة الف

وهنا فطن الى حقيقة مذهلة فرش بمئة الف ؟

ماذا يكون هذا الفرش الذي قيمته مئة الف ليرة ؟

كله ذهب وحرير وأبنوس حتماً

ولكن مئة ألف ثمن فرش وحده ؟

وقال بصوت عال

ـ والله حرام

فأيده السيد فوزي يحسبه يعلق على الايجار

ـ طبعاً حرام

وأحس حمدي برغبة مستبدة في رؤية هذه الشقة من الداخل . لرؤية ما تحققه ثلاثمئة ألف ليرة ثروة عظيمة تبذل في مسكن!

ويبدو انه لم يصبر حتى تتحقق له رؤيتها فراح يحاول تصورها انطلاقاً من مسكنه هو

غرفة حقيرة في دار حقيرة تضم غرفة أخرى يسكنها صاحب البيت وزوجته وأولاده الاربعة ، ومطبخاً مشتركاً الدار كلها، وبعد دخولها في تنظيم مدينة دمشق خُمنت بعشرة آلاف ـ قبل التنظيم بألفين .

هذا يعني أن شقة منير بك أحسن من هذه الدار بعشرين مرة .

ماذا يعني هذا ؟

لم يصل الى نتيجة

مضت اربعة أيام على عمله في هذا المكتب لكنه حتى الآن لم تتح له رؤية أية شقة مما يملك سيده أمر بيعها أو إيجارها .

ـ معلمي

ـ نعم

ـ لماذا لا تدعني أساعدك ؟

ـ فيم تساعدني ؟

ـ في تطويف الزبائن على الشقق   يمكنني أن أريحك من هذا العمل

انطلقت من فوزي ضحكة ساخرة ، قال بنهايتها

ـ يا بني   المسألة ليست مسألة تطويف   أنت تحتاج الى لسان يعرف كيف يقنع٠رأسمال مهنتنا هو هذا في الحقيقة٠لماذا إذن يسموننا سماسرة ؟ السمسار لا يملك بضاعة يتاجر بها انه يتاجر ببضاعة الآخرين ٠ ونجاحه أو فشله في بديهته ولسانه٠ أفهمت الآن ؟

هز رأسه باعجاب٠وتمنى أن يتعلم من السيد فوزي موهبته في البديهة واللسان   ما دام لا يملك أي رأسمال يخرج بظفيره من شقاء الفقر الى نعيم الغنى

آه ياظفيره   أنت قمر   فكيف لا يكون لك شرفة عالية ؟ قصر بلوري معلق بقبة السماء ؟

أميرة الاميرات أنت   وقمر الاقمار

عندما تكبر الأحلام

« ١ »

استمد حمدي عناصر أحلامه وادراكه لما يمكن أن تكون عليه حياة الاثرياء من أفلام السينما التي شاهدها ولم يكن يصدق أن ما شاهده فيها حقيقة واقعة ٠ كان يقول لظفيره إنها تأليف في تأليف

وكانت ظفيره تحب أن تعيش في مصر أو في الهند بسبب ذلك الايحاء ، من الافلام الهندية والمصرية ، بأن أهل مصر وأهل الهند أناس سعداء لا يعرفون الشقاء انهم يعيشون حياة كلها بذخ وأفراح ومرح وغناء لا يعانون الا مشكلة وحيدة هي مشكلة العواذل في الحب وهي بحمد الله ، لا تعاني هـذه

المشكلة بعد أن تزوجت من حمدي ، لكنها تحتاج الى حياةغنية بالافراح والمرح ، وبالرقص والغناء

وكان هذا مثار نقاش يقوم أحياناً بين حمدي وبين ظفيره فهو يدعي بأنه صاحب تجربة أوسع ، ولهذا فانه لا يؤمن بوجود تلك الحياة التي تصورها الافلام العربية والهندية

لو أنه آمن – كما آمنت ظفيره – لما فوجيء هذه المفاجأة التي أذهلته وأوقفته مشدوها فاغر الفم والعينين مثل الاجدب شأنه حين رأى ظفيره أول مرة ، منذ سنتين ٠

الذي حدث اليوم أن منير بك اتصل بالسيد فوزي هاتفياً أخبره بأن الاسرة انتقلت الى منزلها الصيفي في الزبداني ، وانه يريد من السيد فوزي أن يحضر الى الشقة ليتسلمها ، قبل أن يلتحق منير بك بأسرته ورافق حمدي سيده ليشاهد الشقة التي بذل فيها صاحبها مبلغ ثلاثمئة ألف ليرة

ووقف فيها مستطار العقل

يا ظفيره أي عالم هذا ؟ ولا حتى السينما !

ظل مذهولا طيلة الوقت الذي أجرى فيه سيده ومنير بك جرد الاثاث وتثبيته في لائحة وقع عليها الطرفان

ورغم هذا الذهول حيرته التسمية لماذا يسمونها شقة ؟ فهو يفهم من هذه الكلمة ما يفهمه من كلمة « شقفة » قطعة من جزء من

وما يراه هو الكمال ، أو فوق الكمال

مجموعة من الشقق فمن بهو المدخل تدخل من ثلاثة

أبواب الى ثلاث شقق كل منهـا مستقل تقريباً ولا يتصل بالآخر الا من خلال باب وحيد شقة المعيشة تتألف من قاعة واسعة فيها ثلاثـة أركان مختلفة للجلوس كل ركن تفرش أرضيته سجادةعجمية وتعلوه ثريا منالكريستال الاصلي وبينهما طاقم كنبات للجلوس وتربيزات وأباجورات ملونة وبهذه القاعة تلتحق قاعة الطعام بمائدتها الواسعة يحف بها عـدد كبير من الكراسي وتحاذيها بوفيه ضخمة تعلوها قطع الزينة الخزفية ولوحة تمثل منظراً طبيعياً وباب من البهو يؤدي الى شقة ثانية ممر تتوزع منه ثلاث غرف للنوم وحمام٠والباب الثالث تدخل منه الى ممر آخر يقودك الى المطبخ وحجرة الغسيل٠ نعم حجرة خاصة بغسيل الثياب

ماذا أقول يا ظفيره

يجب أن ترى ذلك كله

ان المرء ليحتار أين يعيش في أي ركن من أركان هذا البيت ٠

آه يا حمدي آه ! أنت اذن مدفون وأنت حيّ !

وتذكر شيئاً هذا هو ما تفعله ثلاثمئة ألف ليرة

طبعاً كنت أتساءل عمـا يمكن أن يكـون بيت بذلك المبلغ أعني بتلك الثروة

« ٢ »

استقبلته ظفيره بمفاجأة حلوة

لقد أكبت طوال النهار ، بمقص أولا ، ثم بابرة وخيط ، على فستان لها مما كان في جهازها البسيط الكفرسوسي ٠ أزالت كميه الطويلين نهائياً ووسعت فتحة الصدر وقصرت من طول تنورته الذي كان ينتهي تحت ركبتيها بعدة سنتيمترات

استغرقها العمل تماماً طوال النهار مغلقة باب حجرتها على نفسها لا تريد أن يراها أحد تفعل ذلك ولا تريد أن يشغلها أحد عن فعل ذلك

حمدي في أبي رمانة يشاهد يومياً أشكالا وألواناً من النساء السافرات يرتدين الميني جوب الفاضح أو البنطال الضيق الذي يبرز المفاتن بصورة مثيرة أكثر مما يفعل الميني جوب سمعت هذا منه حرفياً ثم قال لها « لو لبست مثلهن لكنت حرية بكسف شمسهن فأنت أحلى منهن »

وقد تدبرت مكواة قديمة من جارتها تعمل بالفحم متعللة بأنها تريد كي بنطال زوجها

وقبل دخول حمدي البيت بدقائق كانت ترتدي الفستان مسرحة شعرها فوق كتفيها وظهرها مثل شلال من العسل مزوقة عينيها بأحدث طريقة بالكحل الاسود صبغت الرموش، وظللت الجفنين بظلال خضراء واهية

ودخل حمدي ذاهلا اكتفى بتحية المساء فاترة وتهالك جالساً على القاطع ٠ ووقفت هي تنظر اليه قلقة ، وتساءلت

ـ هل حدث شيء ؟

نظر اليها دون أن يراها تقريبا ثم تنهد مطرقا

ـ لم يحدث شيء لكننا ـ كما تبينتِ اليوم ـ مدفونون بالحياة ياظفيره

وتزايد قلقها فركعت أمامه مستندة الى ركبته بكفيها

ـ أخبرني حمدي ما الذي حدث ؟

وحملق في وجهها وقطب ثم انفرجت اسارير وجهه وهو يعود اليها خارجا من تلك الشقة هاتفا كأنه يتساءل

ـ ظفيره !

تنفست ظفيره بارتياح ونهضت بخفة قطة ورشاقتها، تقـول

ـ أفزعتني

كانت تريد أن يراها بما هيأت له نفسها وجمالها الذي باتت هي أيضا تحس بالافتتان به لفرط ما سمعت ورأت من تهافت حمدي عليه وولهه

فتناست حالة زوجها العجيبة ودارت حول نفسها بحركة رشيقة مغناج ووقفت تبتسم له ، على بعد خطوتين ، حيث غمرها نور الكهرباء واضعة كفيها على خصرها

وجحظت عينا حمدي قيللا وهما تستكشفان المفاجأة بنظرة شاملة مندهشة ثم بنظرة تفصيلية تستقر أكثر ماتستقر على ما أظهره تقصير الفستان من ساقين بديعتين تلهب الحواس كما تلهب الحلق جرعة كبيرة من العرق

تساءلت ظفيرة بدلع

ـ ما رأيك ؟

ـ تجعلين الرجل يجن

ـ أيّ رجل ؟ فعلت هذا لحمدي وحده

ـ آه ظفيرة   أتريدين أن أجن فعلا إذن ؟

ـ بي أنا   ومن أجلي

ـ أاهون عليك ؟

ـ ولكنه جنون حلو   أحبه   أحبك مجنوناً

وفطن فجأة

ـ ولكن ، مهلا   من أين لك بهذا الفستان !

ضحكت بمرح   ودارت حول نفسها بسرعة   فالتف ذيل الفستان وانصر على ردفيها متداخل الاطراف   كأنه يحتضن أروع مفاتن الجسد بشبق مجنون

وطاش صواب حمدي   كما لو كان قد شرب مئة جرعة كبيرة من العرق   خلال دقيقة واحدة   وداهمه دوار الحمى القويـــة

لكن ظفيره انفلتت من ذراعيه مثل السمكة الحية ، ووقفت بعيدة عنه   تفور بحيوية الطفلة العابثة والمرأة اللعوب معاً ولهثت تقول

ـ نتعشى أولا . ألست جائعا ؟

ـ أأنت جائعة ؟

ـ طبعاً   أيطيب طعام لا تشاركني فيه ؟

وراقبها بتلك النظرة المدلهة تحضر المائدة ، وقد جعلها الفستان الجديد أروع ما يمكن أن ترى العين فعلا وحقاً
وتمازجت عندئذ مشاهد الشقة الرائعة بمشهد غرفته الحقيره..
فاذا بظفيره يتبدل اطارها المزري هذا باطار يليق بها
ورآها وهي تتحرك في جناح المعيشة بين ركن الطعام وبين المطبخ تحيط بها أبهة الثلاثمئة الف ليرة !

وتجالس الاثنان على الارض بينهما صينية الألمينيوم عليها طبقان لا غير طبق زيتون وطبق لبن مصفى وابريق شاي وقدحان

تجالسا على ضحك مرح مغناج لا ينقطع من ظفيره فرحة بما تحسه في كيانها منفتنةطاغيةوجمال آسر،وعلى حلمتاهحمدي في رحابه حيث ركن الطعام الفخم في الشقة الفخمة ومائدة تعلوها أطباق الشواء والحلوى والفواكه سعيداً بأجمل زوجة، وظفيره تطاعمه وتساقيه راضية مدلهة بحب زوج حقق لها مكانها اللائق

وفجأة كفّت ظفيره عن الضحك ، متنبهة الى حال زوجها:
ـ أين أنت ؟

واستيقظ هو مرتداً الى أرضية غرفته الخشنة ونظر الى ظفيره بدهشة من يوقظ من حلم برنين جرس باب الدار
ـ ما بك ؟
ـقـال
ـ كنت أحلم
ـ تحلم ؟
ـ تصوري .. أحلم بك ، وأنا معك .

ـ بل قل بصراحة   أنت على غير طبيعتك اليوم

ـ لم تخبريني   من أين لك بهذا الفستان ؟

ـ لا تتهرب ٠ أخبرني أنت عن حالك اليوم ٠

تنهد قائلا

ـ انني كما تعرفينني   كل مافي الامر   أنني شاهدت شقة منير بك

نظرت اليـه متشككة   ما بال شقة منير بك ؟ ما علاقتهـا بحاله العجيبة ؟

ونظر اليها   ورأى نظرتها   لا يعرف في الحقيقة كيف يحدثها   كيف يبدأ   ان ما رآه يجب أن تراه هي   عندئذ يكون الحديث يسيراً   يأتي تلقائياً

ومع ذلك قال لها ، يبدأ الحديث من حيث بدأ فضوله هو

ـ تصوري يا ظفيره   شقة وفرشها بثلاثمئة ألف ليرة

ـ سبق أن حدثتني هذا الحديث

ـ حسناً   لكني رأيت الشقة اليوم   دخلتها ورأيتها ورأيت ما فيها من أبهة

ـ أنت تتهرب من سؤالي   دعني مـن الشقة٠وأبهتها وأخبرني عما غير حالك اليوم

ـ انني أخبرك بالفعل

ـ تعني   انها الشقة ؟

ـ قولي قصر لا ادري كيف يسمونها شقة

ـ مهما كانت ما لنا ولها ؟

ـ لو رأيتها لادركت ما احس به

ـ عجيب طبعك أتريد أن تقنعني بأن الشقة هي التي شغلتك عني حتى انك لم تعد تراني بعد ان رأيتها ؟

ونهضت مغضبة تحمل المائدة وتودعها ركنها من الغرفة.
ورأى حمدي ظفيره من جديد رآها ببهائها الجديد ،سبائك من اقمار خيالية لم توجد في السماء ، اختصها الله بكـون صغير صاغه وهو في أفضل مزاج ثم منحه لحمدي حمدي وحده فضلا منه عظيماً ومنّة عظيمة وجعل فيه حياته وموته كما جعل فيـه محرابه فلكل النـاس كون ودنيـا وآخرة ولحمدي وحـده كون ودنيا وآخرة وكون حمدي أروع والناس يشقون ويسعدون في كونهم ذاك وحمدي يسكر من فرط السعادة في كونه

ـ سعيدة الآن ؟

ـ كل السعادة

ـ أتبلغ بك الغيرة علي من الاهتمام بشقة ؟

ـ لا أحب أن يشغلك عني شاغل بذلك نبقى سعيدين

ـ نعم صدقت ولكن حين لا يشغلك عني شاغل أنت أيضاً.

ـ لا يوجد ما يشغلني عنك

ـ حقاً ؟

ـ هل أعجبك الفستان

ـ لم تخبريني من اين حصلت عليه ٠

ـ انه من فساتيني ارايت ؟ اثمر جهدي إذن أصبح فستانا آخر لا يذكرك بفستاني القديم اشتغلت به طوال النهار لتراني كما ترى بنات أبي رمانة

ونظر ونظرت الى الفستان المدعوك الملقى على القاطع باهمال ، هناك مقابل السرير ورأى فيه دليلا قاده في شوارع ابي رمانة الى شقة بلغ من روعتها أن كلفت ثلاثمئة الف ليرة٠

وتجول في الشقة من جديد ثم انتهى الى سرير غرفة الزوجية ، حيث رأى ظفيره تنتظره عارية ٠٠٠ الروعة في إطار من الروعة ٠

وظلت ظفيرة مكانها على السرير ترمق فستانها بسخرية ٠ اكان جهد النهار بطوله ليؤدي الى غير النتيجة التي تحصل عليها كل يوم ؟ انها أجمل النساء ٠ بهذا الفستان أو به قبل أن تغيره٠ وإنها مغرية في كل حال ، دون جهد أو عناء ٠

وارتد بصرها عن الفستان راضية منتشية ، تزداد التصاقاً بحمدي متكورة مثل القطة بين يدي صاحبها واغمضت عينيها سعيدة ، ونامت دون أحلام

أما حمدي فلم يستطع العودة الى بيته ٠ لبث في تلك الشقة، يطوف مرة بعد مرة في أركانها ورحابها ٠٠ وبين المرة والمرة يمر بغرفة الزوجية ليتأمل مسحوراً قمره يشع بالرؤى الحية الزاهية على سرير الولادة والموت ويكتشف المرة تلو المرة وهو بين حدي الحلم واليقظة المتداخلين،إنه وحده يمتلك العالم٠

« ٣ »

مرة ثانية وامتداداً للمساومة في المرة الاولى رأى أبا قسام يلف سيكارتــه بتلك الأنــاة وتلك الاطراقة اللتين توحيان لحمدي بأنه ممسك بسُبحة منكفىء على التسبيح بحمد ربه في حين كان فوزي يقوم بمناورته انــه في معركة الرزق اليومية لكنها الآن معركة أكثر إثارة وهي تجري مع أبي قسام البخيل المقتر حتى بكلامه وبحركة ملامحه حتى إن فوزي بدا فاقد الصبر

ـ أبو قسام أخبرني كرمي للرسول أتريــد أن تبيع فعلا ؟

أجاب أبو قسام بمنتهى الهدوء ودون أن يرفع عينيه عن سيكارته

ـ لماذا أتيت إذن ؟

ـ ولكن ، يا أبا قسام٠٠ان المبلغ الذي تطلبه غير معقول٠

تململ أبو قسام الا أنه لم يقل شيئاً اكتفى بلحمورقة السيكارة بلسانه

قال فوزي ضجراً

ـ لا بد لي إذن من الشك في حسن نيتك أنت تفعل كما يقول المثل إذا أبيت أن تزوج ابنتك فارفع مهرها

وأشعل أبو قسام السيكارة أخذ منها نفساً واعتكفذلك الاعتكاف ٠ وكاد فوزي أن ييأس لكنه تمسك بحبل أمل آخر٠ هتف فجأة

ـ تذكرت اخبرني أبو عبده بأنه مستعد لاعطائك شقة من بنايته الجديدة في حي المالكي ، مقابل أرضك هل رأيت بنايته الجديدة في المالكي ؟ انها ضخمة فخمة مساحة كل شقة مئتا متر مربع اذا سكنت فيهـا أبعدت المرض وحتى الموت عنك وعن عيالك

قال أبو قسام دون مبالاة

ـ عندي بيوت كثيرة بحمد الله

ـ ولكن ما أحدثك عنه شيء آخر يا أبا قسام انت تسكن في قبو مثل القبر والله سبحانه وتعالى قال وأما بنعمة ربك فحدث نعم يا أبا قسام تنعم فالدنيا زوال ، وأنت في آخر العمر عشت عمرك شقياً ثم إن ربك أعطـاك وأكرمك لتعيش مرفهاً لا لتظل محروماً مثل المساكين لمن تكنز هـذه الأموال كلها ؟ لماذا تعيش محروماً وأنت الثري ؟

وكان حمدي يتساءل هـذا السؤال بينه وبين نفسه منذ جلس أبو قسام هذه الجلسة القنفذية • لماذا يدخر هذا المأفون؟

أين عينا ظفيره تريان هذا الهيكل الآدمي الأجرب ؟

قلبي يحترق يا ظفيره !

لو ملكت ربع ما يملك لجعلت منك أميرة دمشق

ولكن ! سبحان الله ! يعطي الحلاوة لمن لا لسان له

مئتان وخمسون ألفا ، فوق ما عنده لا يرضى بها ناقصة مئة لـيرة

مئتان وخمسون ألفا يا ظفيره !

أتدرين ما تفعله هذه الثروة ؟

وقال أبو قسام ناهضاً

ـ اذا عزم صاحبك أفرغتها له سلام عليكم

وخرج

وأطلق فوزي وراءه شتيمة قذرة،كما فعل في المرة السابقة٠

كان حمدي قد شرد ولم يعرف نتيجة المساومة سأل سيده

ـ هل تم الاتفاق

ـ لا ولكن أبا عبده لن يترك الارض تذهب الى غيره ولو دفع فيها ثلاثمئة الف

وسمع الاثنان زمور سيارة ذا نغمة تدل على أنها سيارة غير محلية رف قلب فوزي مع عينيه الى الباب فرأى من خلال الزجاج سيارة فارهة بلون العسل آخر طرز فخم يخرج من المعامل الامريكيـة وكان فوزي مفتوناً بكل ما يخرج مـن المصانع الامريكية

ـ فرق هائل انظر أهذه سيارة أم شقة بذمتك ؟

هتف حمدي

ـ الحق معك يا معلمي

وترجل سائقها يعدّل من وضع عباءته على كتفيه وخطا نحو باب المكتب بتثاقل

ـ يبدو كأنه أمـير

قال حمدي في حـين هب فوزي الى الباب يفتحه وينحني

انحناءة صغيرة ، مبتسماً ابتسامة واسعة جعلت شاربيه الرفيعين يتمددان ويبدوان طويلين بصورة مضحكة

ـ أهلا أهلا بالامير شـرّف

قال الرجل

ـ السلام وعليكم

نطقها بأنفه حتى بدت وكأن ناطقها أمريكي لفرط ما تسرب منها عن طريق أنفه بدل الفم • وتعارك كفا السمسار وهو يرحب به

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، أهلا وسهلا بسيدنا، شرفتم المحل مولانا • تفضلوا بالجلوس

واسترسل فوزي بالترحاب وقدم للعميل سيكارة أمريكية، أشعلها له ، ثم أمر حمدي باحضار صحن بوظه من دكان مجاورة•

لكن العميل أوقف حمدي بحركة من يده وقال

ـ لا أريد شيئاً الطبيب منعني من كل شيء

قال فوزي متصنعا القلق

ـ خيراً إن شاء الله !

قال العميل

ـ بسبب مرض السكر ، لعنة الله عليه •

قال فوزي

ـ والله أحزنتني لا حـول ولا قوة الا بالله الامراض

كثرت هذه الايام وخاصة أمراض القلب والسكر أعرف الكثيرين

قاطعه العميل

ــ على كل حال جئتك أطلب شقة

قاطعه فوزي

ــ طلبك حاضر يا مولانا اطمئن

تابع العميل

ــ شقة مفروشة ، فخمة مريحة ، وفي حي من هذه الاحياء الراقية أعني الروضة المالكي أبا رمانة

قاطعه فوزي

ــ يا سيدي ، طلبك هنا في حي أبي رمانة وقريب من مكتبنـــا

ــ نتفرج عليه اذن

ــ أنا بأمرك

نهض العميل ، ونهض فوزي متحمساً ، مشى العميلخارجاً. وأخذ فوزي مفتاحاً من درج المكتب تبين حمدي على الفور انه مفتاح شقة منير بك !

ــ جاءنا الخير يا حمدي ، وهذا أول الغيث .

همس له بفرحة طفل بقرص حلوى وخرج عاجــلا وتحركت السيارة الفارهة .

وأحس حمدي بشيء يحتضر في داخله

لم يسبق له ان فكر بمسالة أن الشقة معروضة للايجار أو غير معروضة

فمنذ شاهدها وتملى روعة مافيها وبذخه عاش حالماً وتعطلت لديه تقريباً آلة التفكير

لقد عاش حالماً في هذه الشقة ثلاثة أيام بلياليها يتعابث وظفيره ، يلهوان كولدين في بستان ويقفان في المطبخ معاً متعاونين في الطبخ وفي جلو المواعين واستحما معاً العديد من المرات في حمام يغري المرء في البقاء فيه يستحم على الدوام. ثم ان غرفة النوم ضمتهما ثلاث ليال هانئات

أحس بشيء يحتضر في داخله
أهي هذه الاحلام اذن ؟

أم الامل في ليلة حقيقية في هذه الشقة يقضيها مع ظفيره كما فكر مراراً مالذي كان سيحدث في الدنيا لو تحققت هذه الامنية ؟ أهي حرام ؟

استولت على روحه قبضة خانقة فخرج الى الرصيف يتمشى أمام المحل وهو يقاوم دموع القهر ويردها عن الانطلاق من عينيه

« ٤ »

رجع فوزي متثاقلا
وحبس حمدي سؤالا هم بالانفلات متلهفاً إنه يخشى أن يدمر الجواب قوة الامل المتشبث بقلبه فينهار نهائياً ، وتسقط الامنية

قال سيده

ـ اصنع لي فنجال قهوة

وفتح درج مكتبه ، وأعاد مفتاح الشقة

أحس حمدي بأن سيده غير مرتاح ولاحظ حركة اعادته المفتاح الى مكانه انها حركة تدل على خيبة خفق قلبه وتردد في إفلات ذلك السؤال المفعم باللهفة وتنبه فوزي

ـ أما تزال واقفاً ؟

واضطرب حمدي ، ابتسم تلقائياً ثم إنه سأل سيده

ـ هل هل اتفقت معه ؟

ـ لا منير بك قيدنا بشرط يـُعقـّد الامور

أحس حمدي بارتياح بل ان فرحة نقية طفرت من قلبه إلى وجهه مثلما تنحسر غيوم عابرة عن وجه الشمس ونهره سيده

ـ تحرك ، واسعفني بالقهوة ، هيا عجل

وانطلق حمدي يدخل الخلفية أشعل الموقد الغازي ووضع عليه الدلوة* ثم رجع يفرك كفا بكف يشعشع وجهه ضحك يتفجر في قلبه

ـ ولكن لم تقل لي يا معلمي لماذا لم تتفق معه ؟

قال فوزي حانقاً

---

* الدلوة وعاء تطبخ فيه القهوة يسمونه في مصر كنكه وفي الشام دوله

ـ قلت لك بأنه شرط منير بك اللعين ٠
ـ أي شرط ؟
ـ أن يكون المستأجر دون أولاد
ـ تعني ان صاحبنا لديه أولاد ؟
ـ زوجتان وعشرة أولاد ٠
ـ والله يا معلمي إن الحق مـع منير بك عشرة أولاد يخربون بلداً ، فما بالك بشقة مثل ٠٠ مثل

حار بما يشبهها الا٠أن فوزي قاطعه بحنق أكبر

ـ اذهب الى الدلوة قبل أن يتبخر ماؤها

« ٥ »

تضاحكت ظفيرة ضحكتها الرنانة التي تشـبه رنين ليرات ذهبية وانفرجت شفتاها القرمزيتان عن أسنان نضدة كطوق من الفل ٠
كان حمدي قد حمل فرحته الى البيت وانطلق يتحدثعما حدث له من خوف ، وعن انجلاء همه ، بجدية أضحكت ظفيره
ـ من يسمعك يظن أن الشقة من أملاك أبيك

تنهد حمدي ، وقال ببطء

ـ مع هذا أحس بأنني
ماذا يقول لها ؟
أيجعل نفسه مُضحكا ؟!

ولكن ـ يا ربي ـ إن أحلامي تلك كلها تجري مع ظفيره !

إن سعادتي بها   وسعادتي تكون أعظم من كل سعادة حين تكون هي سعيدة معي • ولا ريب في أن العيش في شقة كهذه يجعل المرأة سعيدة كل السعادة

ـ أليس هذا صحيحا يا ظفيره ؟

ـ هذا ؟ ما هو ؟ (وضحكت) إنك امسكت ، ولم تكمل كلامك   ثم تسالني

وغلبها الضحك الشديد   فلم تتم قولها

كان هذا من صفاتها   أن تضحك بسهولة   ويسر وبمرح ، وبطريقة تدل على أن ضحكها ليس ضحكاً   انه غنج• وإنها طبيعتها الغنوج   وقد تفاقمت هذه العادة لديها أخيرا •• بعد أن لمست افتتانه يزداد بضحكاتها   حتى انه ينظر الى وجهها مذهولا ، وتبدو نظرته الخاشعة صلاة وعبادة   وبهذين الافتتان والخشوع كان يلثم أسنانها

الا أن حمدي ـ في هـــذه اللحظة ـ احس بانفصام مؤلم عنها • انها تضحك من مشاعره ، وإنها لا تفهمه   لا تفهمه !

ولاحظت كآبته متعجبة

ـ ما بك ؟

ـ لا شيء

اقتربت منه منحنية   تلفح وجهــه وعنقه بأنفاس حارة عطرة   حملقت في وجهه بعينين متسعتين   مازحة

تأملها صامتاً   دون حركــة   جميلــة   رائعة   حري بالرجال جميعاً أن يعشقوك ويعبدوك ياظفيره   ولكن

قطعت خاطرته بصيحة استنكار

ـ يـْهْ ! ما بك يا رجل ؟

– انني انظر إليك

– دون كلمة واحدة ؟ هذا عجيب

ودون أية مقدمة ، حتى بالنسبة له ، قال لها

ـ ظفيره يجب أن اصحبك الى تلك الشـقة يجب أن تشاهديها قبل أن تؤجر

أمالت وجهها ترمقه بنظرة مائلة وقد قطبت ، أحست ظفيره بأن حمدي لم يعد معها لم يعد مع جمالها وبهائها وسحرها. هل انفك السحر ؟

أمها فقيرة وبسيطة وزوجة رجل بسيط وفقير مع هـذا همست لها ذات يوم « لا يغرنك افتتانه بك فالرجل الـذي لم يعرف غير امرأته هو الذي يفتتن بها .. حتى يعرف غيرها ».

وفكرت ظفيره ولكن هذه شقة ، وليست امرأة آخرى

ومن أجل المسايرة والتربص حتى تكتشف سره الحقيقي، قالت ظفيره بمرح مفتعل

ـ حسناً حمدي..كما تريد يا حبوبي سأشاهد الشقة.

ليلة تاريخية !

« ١ »

حان الموعد إنه آذان المغرب واستأذن حمدي سيده متعللا بمرض زوجته وانطلق الى المكان المعين ، فوجد ظفيرة تنتظره

بدت غريبة عنه نسبياً بملاءتها التي جعلتها مكورة مبهمة وبغطاء وجهها الذي طمس ملامحه ولونه إنها نشاز في حي أبي رمانة أدرك هذا في زوجته لاول مرة

وتساءل أتحتم الضرورة في أبي رمانة ما تحتمه في كفرسوسه ؟

مع ذلك لم يجرؤ على أن يطلب منها كشف وجهها على الاقل. بل انه مشى فمشت وراءه كما يمشي المرء في جنازة

ومشت خلفه وراء زوجها ، في شارع أبي رمانة الرئيسي ، على استحياء ورأت من خلال الخمار الاسود الفتيان والفتيات العصريين رأت الفتيات بصورة خاصة مرتديات الميني والميكرو والبنطال

ليست هذه أول مرة تمشي فيها خارج حي كفرسوسه فلطالما خرجت من كفرسوسه أيام الجمع الى بعض أماكن من دمشق لتدخل هذه الدار أو تلك من دور السينما الرخيصة ، وقد شاهدت تطور المدينة وخاصة في الازياء

الا أنها ، الآن احست لأول مرة بأنها تعيش وضعاً غير معقول حينما كانت صغيرة ، كانت تمشي في الشوارع بحرية ، ولا ترتدي الملاءة ولا تغطي وجهها بالخمار انها تعرف بأن المرء لا يستطيع أن يظل طفلا ، بل انه يتوق لأن يكبر بسرعة ، ولكن حتى يتحرر لا لتزداد قيوده وايُخفى كما تُخفى الأسرار المحرمة ٠

طافت هذه الفكرة في ذهنها منذ هبوطها من الباص ووقوفها على الرصيف تنتظر زوجها والحت عليها وشغلتها تماماً الآن ، اذ قادها زوجها على نحو رَعَوِيّ ، على أرصفة تعج بمرح النساء والرجال المنطلقين من كل قيد أيديهم تتشابك ، وكلامهم متصل ، مسموع ، وضحكاتهم غير مقيدة بأي حياء ٠ والى كل هذا لا تكاد المرأة ـ فتاة أو سيدة ـ أن تكون مستورة بأي ستار

لكن هذه الفكرة تبددت بحضور فكرة أخرى مسبقة سمعتها أو أوحتها اليها أحاديث كفرسوسه ، من الرجال والنساء

على السواء « هؤلاء جميعاً تخلوا عن دينهم وحيائهم انهم مجموعة من الزنادقة عاهرات وعرصات »

أحست ظفيرة بالخجل من نفسها ، حولته الى استنكار وخجل من هؤلاء «ياعيب الشوم ! حقاً انهم فقدوا الحياء والدين !»٠

ثم إنها دفعت بالفكرة التي خشيت أن تدنسها بعيداً،ودفعت نفسها تحاذي زوجها وتهمس له ، لتؤكد استنكارها

ـ ما هذا يا ابن عمي ! يُخرب بيتهم

تساءل حمدي :

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ أهكذا يطلّقون الحياء والدين ؟

قال حمدي باعتزاز أحس بالسعادة من موقف زوجَته

ـ أترين إذن ؟ كفر" علني"، اللهم عافنا

وكان دفاعاً غير مقنع

كفر" علني" ؟ لماذا ؟

يحدث أكثر من هـذا في البلاد الاجنبية التي غزت القمر مـع ذلك

نحن منذ وعينا الحياة نعرف أن في بلادنا خبراء أجانب لا نستغني عنهـم في تطوير بلادنـا واعمارها يسكرون ويتبذلون على هذا النحو ونحن ؟ دائما تحت الضرب ٠ تعساء وأشقياء اليس كفرا أن يخنع الانسان ويرضى بعيش الدواب الذليلة القانعة بالتبن والشعير ؟ أم أن الكفر في الخروج من هذه الحال ؟

والله شيء محيّر

كلاهمـــا   حمدي وظفيره   هتف هاتف في داخلهما

والله شيء محيّر   نتيجة الخواطر نفسها

لكن وصولهما الى المبنى الذي تقوم الشقة في طابقه الثاني قطع الاسترسال في تفكيرهما على ذلك النحو المحيّر   قال لها

ـ هي ذي البناية

وقالت

ـ سنرى دُرَّتك اليتيمة التي شغلتك الى هذا الحد

وقصدت بـ « هذا الحد » انتقاص مكانتها عنده كما سبق لهـا الظـن   لكنها ـ في الوقت نفسه ـ أدركت   منـذ النظرة الاولى   انها ازاء حقيقة غير مألوفة   ودخلت المبنى بشعورها ذاك الذي تدخل به دارا للسينما العجائبية   رفعت الغطاء عن وجهها الآن   وأخذت تتملى نظافة الاشـياء ولمعانها   وأحس حمدي بزهو القائد يقود جيشه الى نصر مؤكد   أخـذ يرمق ظفيره وتعابير وجههـا بطرف خفي   كصاحب اختراع جديد يغيّر في الكون   يقوم بتجربته أمام أناس لم يصدقوا دعواه وأحس أيضا   فيما تبدى على ملامحها من الدهشة والانبهار بما أحسه في أول مرة تمكن من اثبات رجولته لها   في ثالث ليلة أو رابعتها   بعد أن عانى أعظم تعاسة يعانيها رجل يصاب في كرامته ٠

« ٢ »

– هي ذي

وأخرج المفتاح من جيبه ، في حين تلفتت ظفيرة تلفتاللص يهم باقتحام مكان ما   وأحست بالرجفة

– ابن عمي   أخاف أن يرانا أحد
– لا تخافي

وفتح الباب

– ألا تخشى أن يستفقد سيدك المفتاح ؟
– ادخلي الآن

ودخـل أمامها   انتظرها حتى دخلت واجفة القلب فأغلق الباب   وأشعل مصباح البهـو   فلمعت الدنيا لمعاناً آخر يختلف عن لمعان الدرج وبئره   وحملقت ظفيره حولها ثم استقر بصرها عـلى مرآة المشجب الواسعة والمشجب بخلفيته الجلدية الحمراء تتقاطع فيها خيوط سوداء ، وفي الاسفلمحفظة الاحذية   بارتفاع صندوق جهازها

– ادخلي   ليس هـذا شيئاً يذكر بالنسبة لمـا سترين في الداخل

دخلا بابا على يمينهما   الى جناح المعيشة   الى صالون واسع واسع   وأشعل حمدي ثرياته الثلاث   فوق كل من ركني الجلوس   وفوق ركن الطعام   وعندئذ انبهرت ظفيرة ٠٠ ووقف حمدي ينظر اليها   الى وجهها الذي يحمل العذوبـة كلها   والدهشة التي تاكد بها انتصاره

ـ حمدي ! ماهذا ؟!

ضحك حمدي ، وتقافز هنا وهناك يشعل أباجورات الزوايا ·
هتفت به

ـ يكفي ابن عمي الثريات وحدها تبهر البصر

ـ ياغشيمه ! هذه الاباجورات الملونة تجعل جو المكان أجمل ·

وصدق حمدي فهي قد خففت من حدة الضوء الباهر الذي يشع من ثريات الكريستال واونت الجو بألوان غريبة بحلاوتها ·

ظلت ظفيرة مأخوذة لا تدري بأي شيء بهذه الاضواء ؟ بالجدران الفضية النظيفة ؟ بالمقاعد الفخمة التي تبدو مريحة دون تجربة ؟ بالسجاد العجمي الثمين ؟ باللوحات وقطع الانتيكه ؟ بركن الطعام الشهي ؟

واحست بأن الدموع ستطفر من عينيها وهي تطوف في الصالون طوافاً مختصراً عاجلا ثم تتهالك جالسة على أحد المقاعد

سألها حمدي متخابثاً

ـ ما بالك ؟

أجابت مضطربة الفؤاد

ـ لا شيء جلست لأستريح من طلعة الدرج ·

هتف ضاحكاً

ـ تستريحين بعد أن تري بقية البيت هلمي

وأخذ بيدها ينهضها بجذبة مرحة ، ومضى بها الى المطبخ ..
ثم الى دهليز يؤدي الى غرفتي الغسيل والبهو ، ودخلا جناح النوم وطافا بغرفه ورجعا الى جناح المعيشة

رحلة لم يخطر لظفيرة أن تقوم بها حتى في أحلامها كانت متواضعة بسيطة حتى في أحلامها جلست على مقعد في الصالون ، وقد اشتدت في نفسها تلك الرغبة الغامضة في البكاء.

سألها حمدي ـ أيضا متخابثاً

ـ ما رأيك الآن ؟

وقالت تغص بكل كلمة

ـ كأن كأننا في السنما

القى بنفسه لصقها على المقعد وطوق كتفيها بذراعه يجيل نظرة شرهة في الصالون يقول لها

ـ نعم كأننا في السينما ولكن نظل متفرجين

وخطرت له فكرة في الحال فالتفت ينظر اليها

ـ أريد أن أعرف ما فرق بنات الاغنياء عنك أنت ؟
بشرفي أنت أحلى منهن أنت أحلى من كل امرأة في العالم

عندئذ ارتدت ظفيره الى ذاتها أحست بالرضا يعود اليها وتذكرت انها جاءت هنا لتكشف حقيقة انشغال زوجها عنها ابتسمت منتشية وضحكت ثم قالت

ـ أنت دائماً تبالغ
ـ حلفت لك بشرفي

ونظرت اليه .. في عينيه.. تبحث عن تأكيد فلم يتمالك نفسه عن لثم كل جزء من وجهها بدءاً من العنين ، وانتهاء بالشفتين وضحكت ظفيره وضحكت وجن حمدي

ـ اسمعي لماذا لا تخلعين هذا الكفن ؟

شهقت متطيرة

ـ الكفن ؟

ـ قسماً بالله كلما رايتك ملفوفة بهذه الملاءة مثل البقجه، يخطر لي ذكر الكفن والموت والاموات

بصقت ظفيره على صدرها بحركة سريعة وتمتمت

ـ كش بره وبعيد*

وهتف حمدي

ـ اذن اخلعيها ودعينا نهنأ بليلة تاريخية ليلة غير محسوبة من عمرنا نسرقها في غفلة من العالم ومن القدر ونضيفها الى ايالي عمرنا المحسوبة

أعجبتها الفكرة بدأت تخلع المنديل والملاءة في الحال ونفضت رأسها من ثقل لم تكن تحس بـه بسبب الفتها له ونهضت مرحة ودارت حول نفسها دورتين وتبين حمدي انها كانت ترتدي تحت الملاءة اللعينة ثوب المني جوب الأزرق ذاك ، الذي صنعته بيديها ... وتحققت أحلامه رآها بكل

---

* ترديد هذه العبارة والبصق على الصدر من مالوفاتنا الشعبية عند التطير من ذكر الموت والاشباح والجنة

جمالها وبهائها ورشاقتها وسط الاطار الذي حلم بان يراهافيه.
وبدت له الآن ـ في واقعية المشهد ـ أنها بالفعل تليق بهذا الاطار
ويليق بها كأنها ابنته اساساً كأنها ابنة أسرة ارستقراطية
يا ربي بل ان ظفيره تملك أروع جمال بالاضافة

وهمَّ بمعانقتها فزاغت منه بمرحها ورشاقتها وضحكتها..
ولاحقها وهي تركض بين قطع الاثاث ضاحكة حتى تعثرت
وسقطت على السجادة عن قصد أو عن تعثر فعلا لا يدري
فقد تاه حتى عن روعة الشقة وانتقل في الحال الى عالم
الغيبوبة الفردوسية الى عالم يشده الى الموت عاشقاً مدنفاً
يعشق الموت يفنيه في جسد ظفيره

« ٣ »

عندما عرّيتُ حبيبتي في ظلمة غرفتي الحقيرة بـدا
لي أن القمر ينشق من الارض ينبثق كزنبقة بيضاء في العتمة،
يبدد الظلمة لأسبح في بحر من النور الفضي وأغرق فيه

وظفيره هي التي حولت حقارة غرفتي الى رفعة الفردوس ،
ومجده وبهائه

أما هنا تحت الثريات الكريستال ، بين فوانيس الفاليلة
وليلة الملونة وأنا أنضو عـن جسم حبيبتي ثوبهـا الازرق
الداكن فانني أرى الشمس نفسـها تشرق بين يدي تحت
عيني ، في فؤادي ، في ليلة من ليالي الزمان .. لم أجد لها مثيلا
في أية ليلة من ألف ليلة وليلة . ولا في عمر ظفيرة نفسها معي.
يا ربي أطل هذه الليلة واجعل عمري كله ليلا ..

ليلة واحدة مستمرة ، هي هذه الليلة وآه كم يلذ لي الموت في فجرها .

والا من ذا غيري انعمت عليه برؤيــة الشمس تشرق في العشية ؟

« ٤ »

في الليلة الاولى ليلة الزفاف كان حمدي قد بذل جهداً عظيماً واحلاماً طويلة قبل أن يحقق تلك الليلة

وصل اليها لاهثاً مبهور الانفاس كمن تسلق جبلا شامخ القمة ، وهو ضعيف البنية ، وارتمى يلهث مُضْنَىً بينه وبين القمة خطوة واحدة

في تلك الليلة عجز عن القيام بهذه الخطوة..رغم محاولاته الدائبــة

وفي هذه الليلة .. حدث له ما حدث في أول ليلة . وحاول جاهداً أن يجتاز اللحظة الفاصلة بين الحياة البشعة والموت الرائع .

وكانت عينا ظفيرة المتسعتان على رحبهما وشمس جسدها المشرقة الحارة تستنزف أمنياته كلها وتُحوّل أفكار الحياة وأحلامها الى حقيقة واحدة .. الى الحقيقة الأم أنْ لا حياة ولا موت الا في ظفيره ، بجسدها الشمسي بعينيها اللتين تنبع منهما الحياة وتنتهي فيهما

ولكن .. أليس هذا مطلبه !

ألم يتوسل الى الله ليطيل احتضاره كيما تطول حياته ؟

لماذا الحرج إذن ؟

ولماذا هذا التأكيد الارعن على الرجولة بصورتها الحيوانية؟

انه يريد من ظفيرة وفيها الشمس ، يريد الحياة وهاهما معاً • جسد الشمس يحرقه وحياة العينين يبرد حريقه ويغني عمره كأروع ما يشتهي انسان أن يكون العمر : « يا نار كوني برداً وسلاماً »

انه إذن على ذروة حقيقية هي السعادة وهي التحقق هي حقيقة الحياة والحقائق

بعدئذ اطمأن ولكن ظفيره ، في اللحظة نفسها أغمضت عينيها وتراخت الحياة في جسدها فاذا بالشمس تغيب تسقط فجأة وراء جدار الافق المتربص تربص الثعلب ويبهت لون الكون قبل الوصول الى ما وراء حد الحياة الى الموت

« ٥ »

ـ هل أغفت حبيبتي ؟

وفتحت عينيها ببطء ونظرت اليه نظرة هانئة منتشية ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة رخوة ابتسامة شبع مطمئن •• وصل الى كل شيء •

وهذا ما كان يسعى اليه حمدي فاشلا أن يصل الى كل شيء

كان يعتقد بأن جميع نساء الارض لا يغنينه عن ظفيره ويؤمن بأن ظفيره تغنيه عن كل النساء وعن كل شيء وكان وصل ظفيره يعني الوصول الى كل شيء لكنه أبداً لم يصل كان نهمه يزداد ويتعاظم بالوصال وبعده

فان لم يصل الوصال الى تمامه ؟

ـ ما بك ؟

ـ لا شيء انني أنظر اليك

ـ مقطباً ؟

ـ أأنا مقطب حقاً ؟

ضحكت برخاوة واهتزت الثمـار جميعاً في الشجرة العجيبة التي حملت جميع أنواع الثمار الطيبة

ـ أحبك ظفيره أعبد ضحكتك وعينيك ؟

ـ كاذب ٠

ـ أنـا ؟

ـ لم تكن الشقة شاغلتك

ـ بلى

ـ لماذا إذن ؟

ـ إذن ماذا ؟

ـ لم تكن معي

ـ مع من اذن ؟
ـ لا أحسن التنجيم
ـ ظفيره أنت مخطئة
ـ لماذا لم تبلغ النهاية ؟

انشبق صوتها بحدة مفاجئة وهي تعتدل جالسة وتنظر اليه نظرة اتهام

وضحك طويلا تصوروا تتهمني بخيانتها رغم عبادتي لها رغم كل عشقي ومراري · حقاً كما قالوا ·· ما أكثر ما تضم السجون من المظلومين !

« ٦ »

وكان فوزي يغلق باب المحل ق وقد قاربت الساعة العاشرة، حين توقفت سيارة منير بك وهبط منها مسرعاً

ـ مساء الخير أبو الفوز
ـ أهلا منير بك ، مساء النور
ـ حظي حسن اذ أدركتك أردت أن أسألك هل أجرت شقتي ؟
ـ للأسف يا منير بك ان شرط قلة الاولاد لدى المستأجر

قاطعه منير

ـ الحمد لله سأعطيك أتعابك فقد عدلت عن تأجيرها ·
ـ لماذا ؟

ـ انت تعرف يا سيد فوزي ·· أنا تاجر   ولا أستطيع اغلاق متجري لامكث في الزبداني طيلة الصيف   انني مضطر اذن للنزول الى دمشق كل يوم صباحاً ، والرجوع الى الزبداني بعد التاسعة ليلا · وهذا صعب علي·فضلت أن أكتفي بالذهاب الى الزبداني مساء الخميس لأقضي مع عيالي يوم الجمعة

ـ الحق معك   سأعطيك المفتاح ·

ـ لا بأس ، ما دمت قد أغلقت المحل   لا موجب لفتحه الآن   لدي مفتاح آخر · سأمر بك غداً لآخذ المفتاح وأعطيك عمولتك   تصبح على خير

أحــلام الفقراء

« ١ »

انقلبت ظفيرة بسرعة   انها راضية ، تضحك ذلك الضحك
الغنــج   وهي تعبث برغوة الصابون العطري   في البانيو
عبث الاطفال .

لقد استطاع حمدي اقناعها بأنه لم يخنها حتى بالتفكير
واقترح أن يدخلا الحمام ليغسلا العرق الذي نـَزَّ من جسديهما

وبدت ظفيرة سعيدة بالحمام   كل شيء فيه بلون الزهر ،
وها هي   لاول مرة في حياتها تغتسل في البانيو ، تجد لذة عظيمة
في محاولة الماء رفع جسمها الى الاعلى فيختل توازنها وتضحك

وقالت لحمدي

ـ اتدري ، حمدي ؟ هي ذي الحياة وإلا فلا

هتف حمدي بحمية

ـ الله كريم ظفيره إذا رزقني الله ، فسأحقق لك مثل هذه الحياة

واغمضت عينيها على حلم وهي تحفظ توازنها ببسط كفيها على حافتي البانيو ايكون لي بيت مثل هذا ؟ حمام مثل هذا ؟ أيكونان لي يارب ؟

وايقظها صوته

ـ الا تريدين أن تسهري مع التلفزيون

فتحت عينيها وهتفت

ـ انني أتوق لهذا
ـ هيا إذن سأذهب أنا لأصنع القهوة ريثما تخرجين

وخرج من الحمام ، في حين أفرغت البانيو من ماء الصابون وفتحت الدش فوق جسدها

وحين انتهى حمدي من صنع القهوة ، غادرت الحمام ملفوفة بالمنشفة هكذا رأت سعاد حسني في أحد أفلامها .. تخرج من الحمام ملفوفة الوسط بمنشفة ، وكان منظرها فاتنا انها تحب سعاد حسني وأفلامها .

وبالفعل هتف حمدي دهشا

ـ ما هذا يا بنت ؟
ـ ألا أعجبك هكذا ؟

ـ اأنت تركت فيّ مكاناً لمزيد من الاعجاب ؟

ضحكت • واتجهت الى قاعة الجلوس ، تتساءل

ـ أتعرف تشغيل التلفزيون ؟

ـ طبعاً•

قالها بخيلاء وكان قد عمل أجيرا في مقهى يحوي جهاز تلفزيون حمل القهوة ولحق بظفيره الى الصالون•رآها جالسة على الكنبة الطويلة متكئة على أحد مسنديها ضامة ساقيها الى الخلف في صـــورة ملكة أميرة ماذا يقول لكنهـــا فسرت له

ـ ألا تراني مثل سعاد حسني ؟

قال صادقاً

ـ أنت أروع منها

ـ حمدي من أجـــل الله لا تبالغ قـــل لي اأحسن تقليدها ؟

ـ ماالذي أتى بها الى بالك ؟

ـ ما نحن فيه كل شيء الآن يذكرني بمشاهد من الافلام التي رأيتها خاصة أفلام سعاد حسني •

ـ دعينا نعش هذه اللحظات وكأننا حقيقيان فعلا

ـ لا أدري حمدي ولكني أحس الآن كأنني سعاد حسني وأنت أنت حسن يوسف ما رأيك ؟

ـ حسناً كما تريدين أنت ســـعاد حسني وانا حسن يوسف

اغمضت عينيها سعيدة نعم لـم لا ؟ ما شاهدته في السينما ولا تدري حقيقته ، تعيشه الآن حقيقة

ووصل التيار الكهربائي بالتلفزيون وبعد قليل كان التلفزيون يبث فيلماً أجنبياً ، جعل حمدي وظفيره يستاءان معاً· لكنهما امتسلما للعبة الأكابر ـ كما سمعا ـ يحبان الافلام الأجنبيـة

وارتشفا القهوة على مهل وهما يشاهدان التلفزيون دون أن يستوعبا ما يجري في الفيلم · فتاها في أحلام شتى ، بعما افرزته سعادة هذه اللحظات ، أو ما ابعثته ونشطته من أمـاني الانسان وأشواقه الدفينة ·

« ٢ »

فوجيء منير بك وهو يدخل شقته المضاءة وقف في البهو لا يدري ما يفعل وسمع حـواراً باللغة الروسية بين رجل وامرأة توقف مقطباً مترددا ما هذا ؟ كيف أخبرني هـذا المأفون فوزي بأنه لم يؤجر الشقة ؟

ثم تنبه لأجانب ؟

هؤلاء لا يأتون للاصطياف أيكون فوزي قد لعب معي لعبة قذرة ؟

كان باب الصالون مفتوحاً · أطل الى الداخل متلصصاً فرأى ماسمّره ذهولا ·إمرأة عارية الا من منشفة تستر وسطجسدها،

وبجانبها رجل في ملابسه الداخلية يشاهدان التلفزيون الذي يعرض فيلما روسيا

ثم ان بصره ذهل عن كل شيء ، وعن مسالة الشقة على الاخص ، وانجذب الى المرأة الرائعة الحسن « الحورية »

انه زئر نساء عمله وثروته ولباقته ومهارته في الحديث ، كل ذلك هيأ له أن يغوي العديد من النساء الجميلات· لكن أيّا منهن أيا ممن دخلن متجره الهامّ لاتبلغ في بهائها وسحرها جزءا يسيرا مما يرى في هذه الاعجوبة

واحست الاعجوبة بنظرته فتنبهت إلى جهتها ورات رجلا غريبا يحملق فيها فأجفلت وشهقت وتنبه حمدي

ووجد الثلاثة أنفسهم في مأزق حرج

منير ظن نفسه متطفلا بسبب لعبة فوزي القذره ،مرتكبا جريمة

حمدي عرف فيه صاحب الشقة فهبط قلبه هبوطا مريعا حتى احس بأن رئتيه ستتمزقان وحتى انه نسي عري منيره امام رجل غيره

وظفيره لاتدري كيف تتستر من رجل أجنبي منتظرة أن يهب حمدي إليه مؤدبا

ولكن حمدي ـ أول من تحرك ، بدافع الدفاع عن النفس ـ هب يعتذر ويتوسل

ـ أرجوك يامنير بك استر علينا يستر الله عليك وعلى عيالك

واحست ظفيره بالانسحاق صاحب الشقة اذن ؟

وتلاشى حرج منير بك فطن الآن إلى أن هـذا الرجـل هو أجير السمسار فوزي ٠ وأول،ما خطر له انه استغل الشقـة من أجل الدعارة !

ـ آه ياكلب.! أيظهر من حشرة مثلك هذا كله

ـ يامنير بك ٠٠ أرجوك ان تسامحنا

ـ ساتركك للشرطة تنظر في ان تسامحك أَوْ لا

واتجه منير بك إلى جهاز الهاتف فالقى حمدي بنفسـه إليه ، امسك بذراعه.٠٠

ـ أتوسل إليك منير بك أتوسل إلى شهامتك

ـ ياكلب يامافـون ٠٠.اتستعمـل بيتي للـدعـارة سأستدعي الشرطة لتقبض عليك بالجرم المشهود انت وهذه العاهرة ٠

أصيب حمدي بطعنة أحس على اثرها بـأن قلبـه ينفطـر ويتوقف عن الحركـة شحب لونه ، وارتجف جسده جميعا أما ظفيره فقد ذابت خجلا غطت وجهها بكفيها متأوهة

ورفع منير بك سماعة الهاتف بيد وشرع يدير الارقـام باليد الثانية

ولا يدري أحد ـ لأن حمدي نفسه لايـدري ـ كيف غمغم بصوت مجروح وأجوف

ـ يامنير بك انها عرضي ٠٠ زوجتي

وسكنت حركة منير بك قبل أن يتم طلب الرقم بكامله
وحملق في حمدي ثم في ظفيره التي انطلقت هاربة بعريها
من الصالون ، إلى الحمام ، حيث تركت ثيابها

ـ زوجتك ؟

ـ نعم ياسيدي أردنا أردنا ان نسهر ليلة واحدة في
شقة كهذه قلنا بانها شقة فارغة فما الذي يحصل في
الدنيا اذا عشنا فيها عدة ساعات ؟

ـ الدخول إلى منزل دون اذن أصحابه يعتبر جريمة

ـ أخطأنا ياسيدي نعترف باننا اخطأنا ونعتمد على
شهامتك ، ونبل قلبك الكبير ، في أن تسامحنا ، والمسامح كريم

تأمله منير بك مليا •

وحمدي واقف بعريه وذلته واستكانته

ورجعت ظفيره بخطوات مترددة على استحياء شديد ،
وشعور بالذنب مريع ووقفت قرب زوجها

أمعن منير فيها النظر مأخوذا بسحرها

احست ظفيره بنظرته تثقل نفسها تضاعف إحساسها
بالذنب رفعت عينيها إليه تهم بنطق كلمة اعتذار لكنها
لم تفعل رأت نظرته وادركت تعبيرها احست في الحال
بانها تستطيع أن تكون سيدة الموقف• وبتلقائية الانثى وشجاعتها
المستمدة من إحساسها بالسيطرة الطبيعية ابتسمت ونبرت
بصوت عذب ، فيه تبسيط كامل للأمور

ـ يامنير بك ما الذي جرى حتى تُعصّب الامر ؟ اعتبرنـا ضيوفك يا أخي

قال منير بك متسامحا

ـ الضيوف يُدْعَوْنَ أو يَستأذِنون

ـ هذا صحيح ، ومعك الحق كله غلطـة ونحن نتحمـل نتائجها ٠ افعل ما بدا لك ٠٠ نحن نستحق كل ما تراه

واسترخى منير بك وظهرت لمعة في عينيـه ابتسم لها ، وقال

ـ ياسيدتي تستحقون كل خير

كان صوته مفعما بأثر أدركت معناه بغريزتها الانثـويـة الخاصة أثر اضطراب داخلي حـاول السيطرة عليـه هي مبعثـه

ـ تعني إنك سامحتنا ؟

ابتسم منير بك معيدا سماعة الهاتف إلى مكانها ، وقال

ـ ولكني أريد أن أعرف حقيقة اقتحامكما ٠٠أعني دخولكما شقتي ما هو الدافع تفضلي مدام ٠٠ لنجلس أريـد أن تشرحا لي كل شيء في هذه المسألة الغريبة ٠

ثم ان بصره مسح جسدها الفتيّ المثير بنظرة شرهة

وبينما كان الثلاثة يجلسون ، كان حمدي يتعجب من انقلاب موقف منير بك كم أرعبته المفاجأة ٠ وها هو منير بك يتلطف معهما ، ويتبسط ، ويدعوهما للجلوس مرحا هذا دليـل على طيبة قلبه ٠

وروى لمنير بك باختصار بأن المسألة كلها لاتعدو أن تكون شهوة ليعيش مع زوجته ليلة تاريخية وكـانت ظفيرة إبـان ذلك صامته تعيش احساسها الخاص بنشوة القوي المسيطر وكان منير بك منصرفا بكل حواسه إلى ظفيره وحسنها ومفاتنها ـ بثوب الميني جوب الازرق الذي صنعته بيديها يسترجـع عري الجسد اللطيف الناعم كما رآه عند دخوله ، قبل دقائق ٠

ولصق كل ذلك باسم ظفيره ،..الذي تلفّظ به حمدي إبـان الحديث ومن عجب ان منير بـك لم يسمـع غيره من حـديث حمدي كله !

« ٣ »

فكر منير بك ظفيره ؟!

كم هو اسم بلدي !

كان يمكن أن يخمّن اسمها زازا إلزا ، كريستين أو غير ذلك من الاسماء التي عرفها في رحلاته الاوربيـة وفي مراقص بيروت الاجنبية

ظفيره ؟

وضحك

وضحك حمدي مجاملة أو تملقا

وابتسمت ظفيره

عندئذ شاهد منير بك الزهور وهي تتفتح بسرعة عجيبة

وهمى منها على قلبه عطر اقوى من الخمر في تأثيره ، وإذ صحا قليلا من النشوة ، سأل ظفيره

ـ المدام من دمشق ؟

أجاب حمدي

ـ نعم ياسيدي ، ولكن ٠ من كفر سوسه ٠

هتف منير بك متعجبا ، موجها السؤال إلى ظفيره

ـ من كفر سوسه بالذات ؟

قال حمدي

ـ نعم

وفكر منير بك من يصدق ؟ ثم سأل ظفيره

ـ ما هو عمل الوالد ؟

قال حمدي

ـ بستاني

ـ عنده بستان ؟

ـ لا ٠٠ يعمل في البستان بأجر

وفكر منير بك من أين له إذن هذه الحورية السمائيـة ؟ وترتدي الميني جوب أيضا ؟

لاحظ حمدي اهتمام منير بك بظفيره ساوره القلـق

تململ مرارا ، حتى واتته الفرصة ، فغمز ظفيره بعينه أنْ هيا نذهب ٠

قامت ظفيره تتلفت محرجة تبحث عن ملاءتها تساءل منير بك بحماسة

ـ هل تريد شيئا المدام ؟

همس لها حمدي

ـ أظنك تركتها في غرفة النوم

وهتف منير بك ناهضا

ـ ماذا تأمر المدام ؟ انت ضيفة ، وانا في خدمتك ٠

قال حمدي

ـ العفو يامنير بك انها تريد أن ترتدي ثيابها ٠

نظر إليها منير بك يسائل نفسه ثيابها ؟ أية ثياب ؟

وكانت ظفيره تغادر الصالون بعد خروجها ظن منير بـك انها تريد أن تغيرّ ثيابها لماذا ؟

وفي الحال أثار خياله عري ظفيره كما رآها قبل دقائق وأحس برغبة جامحة في رؤيته ثانية ٠ ثم إنه رمق حمدي بنظرة عدائية

تململ حمدي ، وقال باتضاع

ـ من أجل الله يامنير بك ٠٠ لاتؤاخذنا ٠

انقلب منير بك ذلك الرجل الكريم الودود

ـ على ماذا يارجل ؟ البيت بيتكم

ـ حفظك الله ياسيدي •

ـ اذا شئتما المبيت هنا فهذا يسعدني لدينا ثلاث غرف للنوم اختارا أية غرفة تعجبكما •

ـ شكرا ، منير بك ، ألف شكر

وحضرت ظفيره ولكن بصورة مقلوبه ووقفت تنتظر خروج زوجها •

واستبدت الدهشة بمنير بك لأول وهلة ثم راودته فكرة كاد أن يقهقه ضاحكا مما انطوت عليه من مفارقة طريفة

« فعلا الآن هي ظفيره •دخلت المطبخ كريستين وخرجت منه ظفيره » وذابت هي حياء تحت وقع نظرته الملحاحة وتحركت تلقائيا إلى باب الخروج وتحرك حمدي

ـ لاتؤاخذنا منير بك من أجل النبي

ـ يا رجل قلت لك ان البيت بيتكم يا مدام لماذا انت مستعجلة ؟

قال حمدي

ـ نريد ان نصل إلى البيت مبكرين •

ـ حسنا سأوصلكما بسيارتي إذن •

احس منير بك في صمت ظفيره شيئا آخر مثيرا من أشيائهــا الكثيرة واحنقه ان يتحدث حمدي نيابة عنها ٠

قال لنفسه أنا أحق بهذه المرأة من هذا الحقير يجب أن أنالها بأي ثمن ، وأخلّصها منه ومن الملاءة ٠

وفتح باب السيارة ينحني انحناءة توحي بغـايـة الأدب وبالاحترام

ـ تفضلي مدام ٠٠

وبلحظة خاطفة استوعبت ظفيره هيكل سيارة فخمة يلمــع تحت مصباح الشارع وأحست بنشوة تنتابها لاندري من طريقة منير بك ـ السيد القادر ـ في مخـاطبتهـا بـالاحترام والتقدير أم من اقبالها على امتطاء سيارة لم تتوقـع امتطـاء مثلها أبدا

تعمد منير بك ان يفتح لها باب السيارة بتلك الحركة وانتظر حتى جلست على المقعد الأمامي فاغلق الباب ،واستدار يجلس وراء المقود تاركا حمـدي يجلس على المقعد الخلفي تعمد ذلك لسببين أرادهما أن يُشعر ظفيره بقيمتها عنده هو، باحترامها ذاك وأن يجعلها جالسة قربه هو لتحس بالخيلاء كما لابد أن تحس فتاة محرومة مثلها بهذا أراد منير بك أن يمهد لغزو المرأة ٠

« ٤ »

انسابت سيارة الشفروليه الفخمـة متحركـة على طـول

الشارع ، برفق وليونة ٠٠ فما احست ظفيره بحركتها ، كمـا احست في كل مرة امتطت فيه واحدا من باصـات كفر سوسـه الهرمة القاسية المقاعد ولفت نظرها جمال التابلوه وما في تكوينه من ذوق رفيع ثم ارتفع بصرها إلى الشارع ،الاشجار والاضواء تمر هي دليل على تحرك السيارة بسرعة نسبيـة ثم طامنت من بصرها ، فرأت بعض الناس ينتظر على مـوقف باص وينظر إلى سيارة الشفروليه ومن فيهـا ٠٠ داخلهـا عندئذ ذلك الخيلاء وفارقها الانكماش فاعتدلت مرفـوعـة الرأس والصدر ووضعت مرفقها الأيمن على المسند المثبت إلى الباب ، وطاف في نفسها المتوثبة حلم ٠٠ حلم متردد خجول٠٠٠ بانها زوجة رجل ثري يملك هذه السيارة !

ويكون الحلم لذيذا بقدر ما يكون عزيزاً أليس كذلك؟

لم تغب حركة ظفيره ــ رغم دقتها ــ عن ملاحظة منير بك القوية ٠ ولم يسمع تنهدة ظفيره ، لكنه أحس بها فسرى فيه مرور الرضا ٠٠ من توقّع قويّ ستكون ظفيره له ، في اقرب وقت

وكان حمدي يتابع أشياء الطريق ببصره وذهنه وقلبه معا يحاولان الانبثاث بين ظفـيره وبين منير بـك على المقعـد الامامي ويعاني في الوقت نفسه من القلق والوحشة ومن الضعة أيضا ٠

لماذا لايكون لديه ما لدى منير بك ليقدّمه هـديـة تخـدم قدمي ظفيره ؟ ظفيره التي تستحق ذلك واكثر ٠ ولكن٠ واأسفاه!

وحين توقفت السيارة أمام النور الاحمر ، بانتظار النـور الاخضر استيقظت ظفيره من الحلم ، واحست فجأة بالحرج

كـــانت حركة السيارة تساعد عــلى الصمت في داخلها وتلهي عن الحاجة للمجاملة والآن والسيارة واقفة تنبهت ظفيرة الى وجوب مجاملة منير بك أن تقـــول اي شيء لرجــل يقـــود السيارة يحملها وزوجها متفضلا الى بيتهما • فهو ليس سائق تكسي بل انه رجل يشتري زوجها وأباهــا رجل ثري ، يملك تلك الشقة وهذه السيارة ورجل أكابري أيضا فماذا تقول ؟ ولماذا لايتكلم حمدي ؟ ياله من رجل عديم الذوق !

وأجفلها صوت منير بك

ـ امتضايقة من شيء يا مدام ؟

فحارت ولكنها سرعان ما تمتمت بصـــوت متهـــدج فضـــح اضطرابها

ـ لا ، شكرا ، مرتاحة

فتابع منير بك خطته بخطوات واثقة

ـ عن اذنك سأفتح لك النافذة

ومال بكل جسمه نحو النافذة شم رائحة جسدها،وشمت رائحة عطره الثمين في لحظة واحدة اضطربت أكثر واحس بانفاسها على صدغه ، وهو يَنزل زجاج النافذة

اعتدل أخيرا وراء المقود ، يقول

ـ هكذا أفضل ما رأيك ؟

قالت

ـ ما كان يجب ان تزعج نفسك

ـ بالعكس يا مدام   انني سعيد بخدمتك ٠

احس حمدي بمقت لمنير بك   ظنه طيبا في البداية ،هناك، في الشقة ، بعد المفاجأة   ظنه شهما   فأحبه واحترمه ذلك الاحترام الصادر عن القلب   لا عن الخوف   أما الآن فانه يمقته

وتابعت السيارة حركتها الوثيره ٠

ورجعت ظفيره تتابع حلمها ، بانتشاء أكبر   وجدت ان حلمها ازداد جراة   فكرت بهذه الرعاية الزائدة من رجل في مركز منير بك   ولواحدة مثلها ، وبلغ من تاثرها بها أن يتجه حلمها الى رجل ثري معين بالذات ، يشبه منير بك ، بدل الرجل الثري المطلق ٠ منير بك ؟ لم لا ؟

غير أنها أنكفات فجأة الى الواقع ـ لاتدري لماذا ـ منفصلة عن الحلم بعنف ٠ ربما بسبب ميل السيارة الشديد وهي تنعطف الى الشارع الذي يؤدي الى كفر سوسه القديم ٠فتنهدت ـ بصوت مسموع هذه المرة   سمعه منير بك بوضوح ، فالتفت اليها التفاتة استطلاع سريعة ، لاحظها حمدي ، وشعر بضيق متزايد٠

تمتمت ظفيره لنفسها ، بنهاية تنهدتها   « لعن الله حظي العاثر

وما لبثت الشيفروليه الفخمة حتى أخذت تترجرج وهي تدخل كفر سوسة القديم   فخفف منير بك السرعة ، وقال متذمرا   أو هكذا أراد

ـ أعانكم الله ٠ ما الذي يجبركم على الاقامة هنا ؟

غمغمت ظفيره لنفسها « الحظ العاثر »

قال حمدي

ـ القسمة والنصيب يا منير بك

قال منير بك :

ـ القسمة والنصيب هه ؟

تابع حمدي فكرته قائلا

ـ الانسان لايستطيع أن يبدل نصيبه في الحياة

وشعرت ظفيره بحزن عميق

لكن منير بك ساله ساخرا

ـ عن أي إنسان تتكلم ؟

قال حمدي

ـ الانسان أي إنسان لم أقصد إنسانا معينا

ضحك منير بك من سذاجة حمدي وقدريته وتعجب حمدي من ضحكته التي لم يجد لها سببا وانتظرت ظفيره بلهفة ان يقول منير بك ما يريد ان يقوله وراء هذه الضحكة

قال منير بك بلباقة

ـ انت رجل بسيط أكثر مما تبدو في الظاهر

وانتظر لحظة حتى مرت سيارة معاكسة ، ضوؤها باهر ثم تابع مفسرا أو مؤكدا

ـ جدي لم يكن حظه من الدنيا ـ حين ولد ـ بأفضل من حظك لكنه كان جديا ونشيطا ولا يؤمن بالقسمة والنصيب ايمانك بهما كافح وبذل كثيرا من ذكائه وجهده وحين وافته المنية ، خلّف من الثروة لأبي وأعمامي ما ساعدهم على العمل في التجارة ، كتجار متوسطي الحال طبعا لكنهم صاروا من كبـار التجار في أواخر العمر ..

قاطعه حمدي

ـ هنا ، هنا البيت من فضلك . في هذه الحارة

هدأ منير بك السرعة ، وانعطف إلى الحارة التي أشار إليها حمدي .

واسرع حمدي يتم الدلالة

ـ على مهلك منير بك .. وصلنا .. رابع باب على يمينك .

وتوقفت السيارة . واحست ظفيره بالأسف أيتاح لها أن تمتطي مثل هذه السيارة مرة ثانية ؟ انـه حلم استيقظت منـه الآن .

هتف منير بك يقول

ـ أرجو ألا تكون المدام قـد انزعجت الحقيقـة انني فوجئت بكما وبسبب هذه المفاجأة لم أحسن التصرف بحسب الواجب على كل حال .. يمكنكما تشريف الشقـة غـدا إذا شئتما لاتمكن من تقديم واجب الضيافة كما يجب . ساكون سعيدا لو تكرمتما بمنحي فرصة ثانية .

قال حمدي

ـ هذا كرم بالغ منك يامنير بك الحقيقة أنا الملوم

ـ لا عليك انت رجل طيب وتستحق الخير كله وانت يا مدام ٠٠ في الحقيقة انت سيدة رائعة ٠٠ ومن واجبي أن أزيل كل ما سببته لك من ازعاج

ـ العفو منير بك ٠

تمتمت ظفيرة وهي تنغص بالنشوة أو الحسرة لاتدري كلاهما اندفعا من اعماقها وبلغا قمة صدرها في وقت واحد

وفي الوقت نفسه أيضا قال حمدي يغطي بصـوتـه على صوتها

ـ لا تحمّل نفسك هذا الهم يامنير بك ادخلي ظفيره قبل ان تصابي بالبرد ٠

ولاحظ منير بك ان البرد ارتحل عن الدنيا منذ أسابيـع حسنا ٠ فليحفظ شعرة معاوية مع الأخ حمدي المهم ان لايحرم من ظفيره عندئذ تمنى لهما ليلة سعيده وصباحا خيًرا ٠ وأدار محرك سيارته ومضى

« ٥ »

ملفت على ظفيره كآبة سربلتها،وبدت حتى على حركتها وهي تتلمس الباب تفتحه بصعوبة ، بسبب العتمة ، ثم وهي تجتـاز باحة الدار الصغيرة الى غرفتهما ، تفتح بابها بصعوبة أيضا ولاحظ حمدي

ـ مابك أمسيت لاتعرفين كيف تفتحين الأبواب ؟

قالت

ـ أهذه أبواب ، وأبواب ذلك البيت أبواب ؟

ودخلا الغرفة ، فسارعت الى خلع كل ما يلفهـا بالسـواد ويضيّق أنفاسها وبدت في ثوب الميني جـوب الازرق مغريـة مثيرة ، فنسي حمدي ما كان يريد أن يقول لها عن الابواب .. أو ماظهر منها من عدم تحفظ بالاحرى مع منير بك في السيارة ، وحملق فيها وقد عمدت الى الثوب تخلعـه واشتعلت الدنيا بالياسمين الدمشقي ، يغمر كل شيء ببياضـه ونعومتـه وأريجه العذب .

غير ان ظفيرة كانتكئيبة ، مثل بنفسجة في حقل من الشوك البريّ .

توقفت بعد خلع الثوب تحملق في أنحاء الغرفة ..في أشيائها الرخيصة القبيحة .. وفي عينيها ما يدل على ان هذه الاشياء قد تحولت الى أشواك قذرة تجرّح ظفيره ، تخدش بصرها

وتنبهت على ذراعي حمدي تطوقانها ، وعينيه تهميان بنظرة الشوق على وجهها وصدرها وكتفيها فابتسمت .

ابتسمت ظفيره لحمدي ، ولوت رأسها جانبا قالت

ـ لشد ما أشعر بالنعاس ألا تريد أن تنام ؟

ـ بالطبع هيا

والقى بها برفق على السرير الصاجي الرخيص وسألها

ـ أتظلين بالشلحة ؟

ـ كما تريد .

وأدرك في قولها جفافا انعدام تجاوب وكذلك فانه فطن إلى كآبتها تأملها مقطبا انها ملقاة على السرير وكأنها بين يدي طبيب يهم بفحصها ، لا بين يدي حمدي وحار في تفسير حالها

ـ مالك يا ظفيره ؟

قالت بضجر

ـ إنني متعبة

ـ أأنت منزعجة مما انتهت اليه ليلتنا ؟

قالت ساخرة

ـ تقصد ليلتنا التاريخية !

ابتسم لها ، ومسح جبينها بكفه حنونا ، وقال بصوت له وقع سقوط الدمعة من عين يتيم

لا باس   لا باس ياظفيره   ربك كريم

وراها تتململ ، وكان كتفاها المستديران يعكسان ضوء المصباح الضعيف من جانب ويتذبذب الظل رقيقا فسميكا من جانب آخر ، مثل قمرين في بدء بدرهما • وبينهما كان نهر فياض من الفضه السيّالة تجري من العنق على سعة ثم تهبط ضيقة المجرى حتى تغيب بين الثديين إلى مهوى فسيح أراد متابعته بشوق سعيري ، غير ان الشلحة أوقفت رحلة بصره عند منتهى المضيق • ومرة أخرى ضاق بالشلحة • هم بتمزيقها • إلا ان ظفيره كانت مغمضة العينين في استكانة النائم

عجبا ! مابها ؟

– ظفيره ؟

فتحت عينيها ببطء   رأى فيهما ظلا قاتما يحجب عنه اليقين

– حسبتك غفوت •

قالت برخاوة المسالم

– أخبرتك بانني نعسانه •

فماذا يفعل ؟

قال لنفسه ، على غير رغبة ، وباحساس الخائب خيبة مرة « دعها تنم • إنها لم تعتد السهر إلى مثل هذه الساعة • » وقال لها بحنانه المفرط ذاك

– حسنا   أنت محقة   هذه اول مرة نسهر فيها إلى منتصف الليل   نامي يا حبيبتي   نامي ياروحي   تصبحين على خير

ونهض يخلع عنه ملابسه وعاودته ذكرى مغامرتهالغريبة مع ظفيره ، في شقة منير بك ، يتابع دقائق صورهـا الحلـوة ، بابتسامة الحالم ، حتى لحظة مواجهته العجيبـة تلك لمنير بك عندئذ أدرك أنه قام بعمل لم يقم به أحد • أية جرأة واتته حتى قام به ؟ ماذا كان حاله مع ظفيره الآن لو ان منير بك استـدعى الشرطة ؟ غير منير بك كان لابد أن يستدعي الشرطة ما أنبله من رجل وما أطيب قلبه !

امتلأ قلبه بالمحبة لمنير بك إنه بالفعل رجل ابن أصـل وحمدي مخطىء إذ انتهى الى وساوس آثمة وهو في السيارة ، جعلته ينقم على منير بك الـذي بلغ بـه الامر أن يتنـازل إلى حملهما في سيارته إلى بيتهما باصرار ينم عن أريحيةأصيلة• انه أكثر شهامة وطيبة من سيده فوزي ، الذي لايبلغ ركبة منير بك أصالة ورفعة ومكانة السيد فوزي لم يتنـازل إلى حـــد توصيله إلى بيته بسيارته الصغيرة القميئة حين اضطر حمدي، في إحدى الليالي للبقاء إلى ساعة متأخرة ، من أجـل وصـول سيده إلى إتمام صفقة صعبة مع أحـد المقاولين انظر الفـرق إذن !

وأخيرا أطفأ حمدي المصباح ، وأشعل الوناسة وتمدد على الفراش ـ بجانب ظفيره الغالية ـ بحذر أُمّ تخشى إيقـاظ طفلها المريض وبهذا الاحساس أغمض عينيه راضيا ،سعيداً، وأغفى

فتحت ظفيره عينيها فبدا لها سقف الحجرة ناصلا منكل لون شاحبا شحوب مقبرة وتحركت العينان تبحثان عن مكان أفضل تستأنسان به وتستريحان عليه فكان كل مكان يصـدم بصرها بخشونته ، بقتام لونه ، بوحشية خطوطه •

تنهدت ثم زفرت · لكن الضجر ظل يتفاقم وكـذلـك
وحشة العالم ، وكآبة نفسهـا التي وصلت بهـا إلى الاحســاس
بالاحتضار

نهضت حانقة ، واطفأت الوناسة ·· فغمرتها ظلمة كثيفة ،
حالت بينها وبين كل شيء في الحجرة وتنفست بعمق تحاول
ان تبعث نشاط قلبها مستندة إلى الجدار لحظات ثم تحركت
إلى السرير تمددت فوقه ، محاذرة أن تلمس زوجهـا كي
لاتوقظه · لكنها لم تستطع الانفصال تماما عن العالم فبالرغم
من جهد المحاولة انبثقت في الظلمة هالة من النور تتوسطها
سيارة شيفروليه فخمة وبجانبها صاحبُها يفتـح البـاب
ويقول بمنتهى التهذيب والاحترام « تفضلي مدام

منير بك بالذات ، يفتح لظفيره العاثرة باب سيارته مثل
خادم لها ، حتى إذا ما صعدت واستقرت جـالسـة على المقعـد
الامامي أغلق الباب برفق ، ثم صعد إلى مكانه خلف المقود

« تفضلي مدام

تصوري يا ظفيره !·· انت مدام

احست بفرح يغمر أعماقها انقهرت الكآبة انـدحرت
مهزومة · فكان الأفضل إذن ان تسترسل ظفيره في استعادة رحلة
الشيفروليه مرة بعد مرة ، بالحاح ، وبتضخيم ، دون ان تصل
إلى نهايتها القصوى ، إلى هذه الحجرة ، حتى تظل الكآبة منفية ،
محسورة عن العالم ، وتبقى ظفيره بمنجى من براثنها الخانقة ·

الصعلوك والبيك

« ١ »

وصل حمدي إلى المحل متأخرا ورأى فــوزي وراء مكتبــه عابسا حتى انه بدل رد التحية الصباحية ، صرخ فيه

ـ ما الذي أخرك إلى هذا الوقت ؟

ابتسم حمدي كان لايزال مزهوا بعطف منير بك يحس بحيوية غير عادية ، كأن الدنيا قد غيرت حظه قال

ـ والله يامعلمي سهرنا ليلة البارحة مع

كان يريد أن يقول « مع منير بك » متبــاهيــا ، وليــرد غضبة السيد فوزي عليه غير أنه فطن في اللحظة المناسبة إلى وجود زوجته في تلك السهرة فماذا يقول فوزي ؟ ماذا سيظن

به وبزوجته ؟ وبدون زوجته وحكاية الليلة التاريخية ، المغامرة الحمقاء كيف يبرر سهرته مع منير بك ؟

وصرخ فوزي

ـ أتبحث عن كذبة تبرر اهمالك ؟

اضطرب حمدي ، وقال متلعثما

ـ لا والله يا معلمي انني أقول الصدق

ـ أي صدق هل قلت شيئاً ؟

ـ أعني إننا سهرنا حتى الصباح ·· سهرت حتى الصباح أعنى بزوجتي المريضة

تذمر فوزي حانقا

ـ زوجتك زوجتك أما من سُبحة أخرى على لسانك غير زوجتك ؟

ـ ماذا أفعل يا معلمي ؟ هل أكذب عليك ؟

ـ على كل حال · هذه هي المرة الثانية · اذا تأخرت بعدها فلن تفوز حتى برحمة الله · إنه إنذار

قال حمدي متصنعاً

ـ **الأمر لك يا معلمي ، واؤكد على أنها آخر مرة ·**

حسنا ، سنرى · اذهب واصنع لي فنجان قهوة ·

وهرع حمدي بحماسة زائدة ، يصنع القهوة ، وهو يلعن هذه الحياة في سره وليس علنا ·

ودخل المكتب فجأة أبو عبده ، المقاول ، تاجر البناء المعروف .
وبعد السلام ومقدمات الكلام بدأ حديث العمل ودوخت الارقام رأس حمدي القاصر . وصنع للمقاول فنجان قهوة ثم وقف ينصبت وينظر

راى في أبي عبده هذا كرشا كبيرا وملامح رجل خامل وكان حديثه مثل حديث أي رجل من كفرسوسة العتيقة .. رغم سيارة الدودج الفخمة الفخمة التي تسد فراغ المدخل الى باحة المحل .

إنه يبني عمارتين في آن واحد إحداهما عادية الحجم في حي أبي رمانة وفق شروط الطوابق الثلاثة والثانية في حي المالكي بسبعة طوابق كل طابق بأربع شقق وكل شقة بمئة وعشرين ألفا أو مئة وخمسين ولشد ما يلقى الصعوبات بسبب حصر استيراد المواد بهذه المؤسسة العامة اللعينة التابعة للدولة

مظلوم يتشكى وخيل لحمدي ان الدولة لم توجد الا لتظلم الرجال المكافحين الذين يؤدون رسالة عظيمة في المجتمع .. إعمار البلاد

وانتهى الحديث إلى موافقة أبي عبده على عرض أبي قسام . أن يشتري محضره بالسعر الذي تمسك به أبو قسام . وأعقب ذلك عدد من الشتائم القذرة تناولت أبا قسام من جهات متعددة: جده أبيه امه ، زوجته ، أخواته وبناته .

وبعد ذلك تحركت سيارة الدودج وأخلت المدخل

وقلّب فوزي كفيه مسبّحا الله لكن حمدي لم يجرؤ على الاستفسار وقال فوزي بانفعال

ـ تصور هذا الخنزير قبل عشر سنوات وهو يركب حمارا هزيلا ، يجوب بـه قرى دمشـق ، وصحراء الاردن ، لينـجّـد الفرشات والالحفة ٠٠ في مختلف الظروف ! هل تصدّق ؟

أبو عبده منجّد جوال ؟ هـذا الـذي يتكلم الآن بمئـات الألوف ؟!

سبحان الله ! ما هذه الدنيا العجيبة ياربي !

وتساءل حمدي بدهشته البدائية هذه

ـ كيف ؟ هل عثر على كنز ؟

قال فوزي بمرارة

ـ لم يعثر على كنز لكنه رجل داهية يُحسن استغـلال المال القليل ، صابرا أو متصبرا ، حتى يأتيه المال الكثير هذا هو الفرق بينك وبينه

لكن حمدي لم يفهم ظل سؤاله معلقا كيف ؟

وقال فوزي متذمرا

ـ قبـل هذا التأميم اللعين ، وحصر الاستيراد والتصـدير بالدولة كان يمكنك أن تكون تاجرا تربح الملايين برأسمال بسيط كان يكفيك مبلغ عشرين الف لـيرة لتعمل في تجـارة البناء ـ طبعا اذا أوتيت الحيلة والاجتهاد وحسن التدبير

ـ حتى في هذه الحال ٠٠ من أين أتى بالعشرين الفا ، ولم يكن إلا منجدا متجولا ؟

ـ من أين ؟ من بخل وتقتير وغش للناس أبو عبده رجل معدوم الضمير

وغرق كل منهما بأفكاره   وقد اتجه تفكير حمدي إلى منير بك   إلى حديثه عن جدّه ، الذي ولد فقيرا ومات ثريابفضل اجتهاده   إذن كلام منير بك صحيح •

ولكن كيف ؟

كيف يتمكن حمدي مثلا   من أن يغتني ؟ فضلا عن أن يصير ثريا ؟

مسألة عسيرة الهضم

لكن حمدي امتلأ بتوق عظيم لأن يكون ثريا مثل هؤلاء أبي عبده   منير بك ، أبي قسّام   وغيرهم ممن يراهمويسمع أحاديثهم الرقمية   منذ ان عمل في هذا المكتب

آه ! آه ياظفيره آه !

وأفاق الرجلان على توقف محرك سيارة الشفروليه أمام المحل   ورأيا منير بك يترجل منها

وبعد عاصفة الترحاب التي أثارها فوزي   تنبه منير بك إلى حمدي ، فأقبل عليه يصافحه بحرارة ويسأله عن صحتهوصحة السيدة ظفيره •

احس حمدي بالحرج أمام فوزي

وفوزي كان مندهشا   منير بك على معرفة بحمدي ؟ منذ متى ؟ خاصة ان حديث منير بك يدل على ان المعرفة بينهما حميمة   ثم من تكن هذه السيدة ظفيره ؟

وسمع منير بك يقول لحمدي

ـ تلك زيارة غير محسوبة. انني أنتظر زيارة ثانية منكما.

قال حمدي

ـ نتشرف .

قال منير بك :

ـ ما رأيك بسهرة في مطعم آلكازا ؟

« ٢ »

تورط حمدي وابلغ ظفيره الدعوة .

لم يبلغها إياها متعمدا فهو لم يكن يريد تلبية الدعوة إنه فقير وليس مستعدا لمشاكلة الاثرياء . الانسان يعاشر إنسانا من مستواه أعلى من مستواه قليلا .. أما أن يكون رجلا كمنير بك ؟

قال لزوجته متندرا متضاحكا وهو يراها مكتئبة ، وبقصد الترويح عنها

ـ تصوري ان منير بك دعانا إلى سهرة في أحد المطاعم

وضحك قائلا

ـ عجيب هذا الرجل ! نقتحم بيته ، في غيابه ، وبدل أن يحاسبنا الحساب العسير الذي كنا نتوقعه ، يكرمنا ويسعى إلى ترضيتنا كأنه هو المسيء ونحن المتعرضان للاساءة !

وحين إصغائها إليه ، استحضرت ظفيره كل الصور التي أثرت فيها منير بك يخاطبها باحترام ينظر إليها باعجاب ، يصر

على استضافتهما في الشقة ، يفتح لها باب السيارة ، يعنى براحتها وهي في السيارة وهذه السيارة تتهادى بها في شوارع دمشق كأنها الحلم نفسه يحملها على اجنحته إلى هناءات بعيدة المنال

وضحك حمدي

ـ ما الذي وجده فينا ؟ إننا من وسط فقير نحن بالنسبة له شحاذان

سألته ظفيره

ـ بماذا أجبته ؟

ـ قلت له إنني سأرى استعدادك لم أستطع رفض دعوته صراحة أحسست بالحرج فتعللت بك

ـ حسنا أنا موافقة

ونظر إليها مستنكرا قالت له

ـ ليس من المناسب أن ترفض دعوة رجل كريم أحسن إليك مقابل إساءتك إليه

« ٣ »

لقد حركت مظاهر الترف والراحة الحقيقية التي شاهدتها ظفيره بل عاشتها الليلة الماضية حركت فيها أشواقا لم تكن تعانيها من قبل معاناة تصل بها إلى حد الكدر فضلا عن الهم

وإذ استيقظت صباح اليوم بعد أن أغفت على أحلامها

السحرية البراقه ، ووجدت نفسها في هذه الغرفة الحقيرة ،الغرفة التي سخرت منها وصفعتها بالحقيقـة التي يمكن ان تنـام في الليل ، لكنها تستيقظ في النهار مع استيقاظ الناس ، عـاودتها الكآبة ، واحست بالخمول عزفت عن نشاطها اليومي المعتاد في البيت ، وبدت مثل المريضة التي عافت نفسها كل شيء •حتى ان جارتها استغربت تبدل طبعها ، وقد عرفت فيها فتاة مرحـة كثيرة الحركة مدلة بنفسها متباهية بجمالها تتعمد إظهـاره او التلميح إليه بحركات واشارات مختلفة •

حاولت ظفيره أن تلجأ إلى الاحلام ، واسترجاع ما كـان في الليلة الماضية لكن صخب النهار وجارتها وأولاد جارتها جعل احلامها متقطعة قلقة ، بدلا من مساعدتها على قهر الكآبة،أرهقت اعصابها مما اكد لها في نهاية النهار انها مريضة فعلا

واذ حضر حمدي من عمله ، واقبل عليها يغازلهاويتصباها – كما هو شأنه كل يوم – نفرت منه ومن غزله ومن صبابته • بررت هذا النفور بأنها تحس بضيق شديد لاتعرف له سببـا ورغم استياء حمدي لاطفها وحاول التسريـة عنهـا لكن وسائله في ذلك لم تتغير عما يفعله كل يوم لارضائها

عندئذ مدفوعا بحسن النية ، بهذه الرغبة الشـديـدة في التسرية عنها في اضحاكها مما اعتبره هو فكاهة ظريفه ، تورط•

أبلغها دعوة منير بك الملحة ، وكان يظن ان ظفيره ستجـد فيها هي الاخرى فكاهة تضحكها لكن ظفيره أقنعته بوجـوب تلبية الدعوة وهذا أقل ما يقتضيـه حسن الـذوق عنـد الانسان إزاء تصرف نبيل قام به رجل مقتدر وذو مكـانـة عالية •

« ٤ »

وبرهن منير بك على انه نبيـل وكريم أكثر ممـا تصـور الزوجان ، حين حضر بسيارته إلى حارتهما المتربـة الوعرة ليحملهما إلى المطعم ولتعاني ظفيره مرة ثانية لم تتوقعهاـوان كانت قد حلمت بها ـ تلك الاحساسات المتباهية العذبة وهي تجلس على المقعد الامامي بجانب منير بك،في سيارة الشيفروليه الفخمة. ، تتهادى بها في شوارع دمشق حتى باب المطعم

وكان منير بك قد اقنعهما بلباقته السحرية بأنتخرج ظفيره دون ملاءة وخمار حتى لاتبـدو شـاذة في مطعم يضم أناساً سافرين من الطبقة الراقية تردد حمدي لكن حماسة ظفيره في قناعتها لم تترك له مجالا للاعتراض المنطق يقتضي هذا منير بك على حق

واذ هبطت ظفيره من السيـارة إلى رصيف الشارع المزدحم بالناس أحست بالحرج وأحس حمدي بالخجـل والغيرة فلأول مرة تتعرض فيها ظفيره لنظرات الغرباء وهي في ثـوب يكشف عن ذراعيها وساقيها حتى ما فوق الركبتين فسـارعـا بالدخول إلى المبنى الذي يحتل المطعم قبوه وتوقفا في ركنمنزو حتى لحق بهما منير بك

ـ تفضلي مدام تفضلي أرجوك ان تعـذريني لأنني اوقفتك والسيد حمدي هنا .. فقد كان علي أن أقفل أبـواب السيارة

وهبط الثلاثة درجـا مخمليـا أحمر إلى بـاب المطعم فاستقبلهم في الباب رجل جم الأدب ، يرتدي حلة زاهية أنيقة

كانه أحد السفراء الاجانب ، حياهم منحنيا بأدب جم ، مع موسيقا الجاز الصاخبة والعتمة المشربة بالأنوار الحمراء

ـ تفضلي مدام

وترددت ظفيره انها لم تعتد على السير متقدمة الرجال ٠ واحس حمدي بالحرج نفسه الذي أحست به زوجته ٠ لكن منير بك الح وهو يشير بكفه إلى الامام ، وبالكف الأخرى يلمس كتف ظفيره العاري ، مشجعا

ـ تفضلي مدام تفضلي

سارت ضائعة ٠ وقد فوجئت بالجو أهذا مطعم ؟ وكانت حلبة الرقص مثل قفص سُجن فيه عشرات المجانين ٠ هذا هو اذن مشهد آخر من المشاهد الغلابة التي بهرتها به السينما ٠

وتعثر حمدي في مشيته وهو يتلفت مأخوذا بالجو الغريب ٠

ولهث الاثنان حين جلسا أخيرا في ركن من المطعم قريب من باحة الرقص

كان قد تلقفهم شخص آخر بالاناقة نفسها ٠٠ انحنى مرحبا، ولكن بحيوية أكثر دلهم إلى مكانهم المحجوز ، أجلسهم ، وفرك كفا بكف وهو يكرر الترحاب ٠

تساءل منير بك

ـ ماذا تحب أن تشرب المدام ؟

تحيّرت ظفيره في ظنها انه دعاهما للعشاء وكذلك ، فانها لم تفهم ما عناه بالشرب ٠ لكن حمدي الذي ارتاع من السؤال سارع إلى القول

ـ منير بك ، ظفيره لاتشرب
ـ هذا لايجوز • في جو كهذا ، لاتشرب ؟

قال حمدي

ـ سنكتفي أنا وهي بشرب الكازوز
ـ انت أيضا ؟!

وضحك منير بك ثم قال

ـ لا هذه حنبلية لم تعد تنـاسب العصر انظرا الجميع يشربون ويمرحون •

ثم مال على حمدي ملاطفا يربّت على كتفه بمودة أشعرت حمدي بالخيلاء

ـ ياسيد حمدي الانسان لايعيش مرتين ، وإن الله غفور رحيم

واستدار إلى ظفيره

ـ أليس هذا صحيحا مدام ؟

ابتسمت ظفيره ، لم تعرف بماذا تجيب

وادرك منير بك انها راغبة في مسايرة الجو لكن حمـدي هو المحرج حسنا هتف

ـ حسنا • اذن تشربان البيره هذه مثل الكازوز،لامؤاخذة في شربها

ولم ينتظر موافقتهما أمر النادل في الحال

ـ احضر لنا نصف ليتر من الوسكي · وزجاجتين من البيره، وبعض المقبلات ، ريثما نختار عشاءنا · هيا ·

قال النادل باحترام شديد ، وهو يطرف بعينيـه إلى ظفيره بنظرة مريعة باسمة

ـ بأمرك منير بك ، أنا والمحل

وانصرف النادل · والتفت منير بك إلى ظفيره

ـ أهلا وسهلا مدام الحقيقة أنني سعيد بوجودكما

ابتسمت ظفيره منتشية وأراد حمـدي أن يتكلم لكن لسانه لم يزد على حركة عشوائية ماذا يقول ؟ كان محرجـا ، وقد فوجىء بأن ما يسمى بمطعم آلكازا ، لم يكن إلا مرقصا باللعار ! ماذا سيقول عنه أهل حارته غدا ؟

وبدأ جنون حلبة الرقص يتصاعد وانجذب الثلاثـة إلى الراقصين · ولاحظ حمدي ولاحظت ظفيره انهم خليط عجيب في مظاهرهم ففي الرجال من يرتدي البذات الانيقـة ، ومن يرتدي بنطالا وقميصا ومنهم المحافظ على التسريحةالتقليدية، ومنهم المطلق الشعر كالبنات وفي النساء لابسات البنطـال والقميص ولابسات الفساتين البسيطة القصيرة ولابسـات الفساتين الطويلة بعضها مشقوق من الامام ، وبعضها باكمام وبعضها دون اكمام إلا ان غالبيتهن يبدين جميلاتمثيرات·

وخاطبت ظفيره نفسها « تصوري ان تحضري إلى هـذا المكان بالملاءة ! » ·

وقال حمدي لنفسه « هي ذي الحياة ·ولكن ليست لنا · »

وكان منير بك قد تعمّد التظاهر بالانصراف عنهما إلى حلبة الرقص التي لم يكن مهتما بها في هذه الليلة ، ومعه امرأة مثل ظفيره أراد أن يعطيهما فرصة للدخول في الجو عن طريق الفضول الذي لابد ان يثير فيهما كوامن التوق الانساني الطبيعي إلى الانطلاق من كل قيد وأسر وكذلك التوق إلى العيش في نعيم كهذا ولقد تأكد بملاحظته الذكية والناتجة أيضا عن خبرة عميقة بأحوال الانسان ان ظفيره من غالبية النساء وليست من قلتهن من النساء اللواتي يستسلمن بسرعة وسهولة أمام اغراء التميز امام التوقع بأن يملكن شيئا يرغبن فيه رغبة قوية

« ٥ »

أحضر النادل المشروبات المطلوبة وعددا من الصحون تحوي على المقبلات وفتح بنفسه القناني وسكب للثلاثة للسيدة الصغيرة بيره للسيد الضيف بيرة ، ثم للسيد الداعي وسكي بالثلج وبعد انصرافه ، حمل منير بك كأسه وحيا ضيفيه

ـ نخب صحتكما ٠

واضطر الاثنان لحمل كأسيهما ، وتجرع رشفة من المشروب المر رشفة صغيرة لم يسوغا طعمها بارتياح

قال منير بك

ـ كل شيء في بدايته عسير أو غير سائغ لكنه يصبح طبيعيا أو مرغوبا بعد ذلك ٠ خاصة المشروب ٠ بعد عدة رشفات

يصبح محبوبا ومطلوبا ما هذا السر الذي وضعه الله فيـه ؟
لا ادري انه إكسير الحياة ٠

وبعد هذا حمل كاسه ثانية وهتف

ـ نخب تعارفنا

وبعد تعقيب مماثل ، هتف

ـ نخب الأخ حمدي ٠

وشعر حمدي بالخيلاء شرب الثلاثة وساغ حمدي البيرة بهذه الرشفة ، فشرب رابعة ولاحظ منير بك هذا فحمـل كاسه وهتف

ـ والآن يا أخ حمدي٠٠ يمكننا ان نشرب نخب حظك العليب في العثور على امرأة رائعة هي مثـال الاخـلاق القـويمـة والحشمة والأدب ٠٠ أعني طبعا السيدة ظفيره

أرضته هذه الخطبة فحمل حمدي الكأس متحمسا٠ وفهمت ظفيره ـ بشعورها الانثوي الدقيق الالتقاط ـ ان منير بك يشرب نخبها هي ٠٠ فحملت الكأس متحمسة أيضا ٠وحين شرب الثلاثة، استرق منير بك نظرة سريعـة إلى ظفيره فرأى أنهـا هي أيضـا تسترق النظر إليه ، وأرجع نظره إلى حمدي فرآه ينظر إلى المائدة يتخيّر ما يلقم به فمه من المقبلات المغرية ٠

عندئذ ، سألهما منير بك

ـ ماذا تاكلان ٠

وإذ رأى حيرتهما ، أو حرجهما قال

ـ هذه الصحون لاتشبع ولا تغني من جوع انهـا مجـرد منظر سنطلب عشاء حقيقيا ماذا تريدان سمكا مشويا ؟ لحما مشويا ؟ انهم هنا يقدمون لحمة مشوية خاصة،لذيذة. أم تفضلان الفراريج المشوية ؟

قال حمدي ، تخلصا من المأزق

ـ ما تطلبه انت منير بك

ولم يشأ منير بك أن يطيل فقال

ـ اذن نطلب فراريج مشوية

كان يدرك ما تشتهيه الطبقة الفقـيرة في دمشـق انهـا لاتعرف أطايب المأكولات جميعا ولديها فكرة ثابتة عن أنأطيب المأكولات هو الفروج المشوي لهذا لابد أن يُعتبر حَدَثـا في حياتهم حين يتاح لهم أن يأكلوا الفراريج المشوية

قال منير بك لنفسه « مساكين » واشار للنادلالرئيسي بالحضور وطلب منه ثلاثة فراريج مشوية وسلطة ومتبـلا

وسال لعاب ظفيره وحمـدي وانتظروا حضـور الفراريج المشوية بفارغ الصبر وهمـا ينقّلان النظر بين النـاس أو يستقران به دقائق على الراقصين

ولعل موقف حمدي الاكثر حرجا من موقف ظفيره دفعـه إلى ان ينهي زجاجـة البيره قبـل أن ينهي الآخران كأسيهمـا فطلب له منير بك زجاجة ثانية غير مبال باعتراضه

كانت ظفيره سعيدة بالمكان والجو على خلاف حمـدي أحس بأنه مغرر به من قبل منير بك أو المصادفة ، لايـدري

بالضبط · فهو لايريد أن يتهم منير بك بسوء النية · هذا الجو ليس جوه وليس جو ظفيره · لهذا لم تكن سعادته صافية·كانت منغصة باحساس حمدي الدوني فشرب الزجاجة بسرعة ، وداخ ، وقام يترنح قليلا ، يريد أن يفرغ مثانته · وهذهفرصة توقعها منير بك وانتظرها · التفت إلى ظفيره

- يبدو ان المدام لم تحب البيره

قالت باستحياء

- انني لا أحب المشروب

- هل جربته ؟

- لا · هذه أول مرة ·

- اذن انت تحكمين دون تجربة

- وهذا ، أليس مشروبا ؟

- هذه بيره يا مدام·ولا أدري كيف صنفوها في المشروبات· جربي الوسكي · لن تخسري شيئا

وقدم لها كاسه

ترددت · لكنها شعرت بحرج ، فبادرت إلى تناول الكـاس ، وأخذت جرعة منه · كانت حادة ، لم تسغها ·

- ما رايك ؟

- إنها حادة الطعم · حرقت حنجرتي

- لأنها أول جرعة ·

وهتف

ـ اسمعي جربيه مع البيرة وبادر إلى سكب الوسكي في كأسها فوق البيره وطلب منها تذوق الخليط فذاقته ٠

ـ والآن ، ما رأيك

ـ معقول

ـ بعد جرعة ثانية يصبح لذيذا وليس معقولا فحسب هيا نخب أجمل ليلة في عمري ليلة أول أمس ، حين فوجئت بك وعرفت فيك أروع امرأة في العالم

وشرب هو

وترددت هي

هتف ، يهيب بها

ـ هيا اشربي لأعرف على الأقل بانك لست حاقدة عليّ
ـ لماذا أحقد عليك ؟
ـ لا أدري هكذا أحس
ـ انت مخطيء
ـ حقـا ؟
ـ طبعا فليس ثمة ما يثير حقدي عليك ، بل بالعكس
ـ بالعكس ماذا ؟

وحارت ظفيره ٠ افلتت منها العبارة افلاتا ٠ مجاملة ٠فماذا تقول الآن ؟

ـ هل افهم بأنك راضية عني

ـ بالطبع

ـ هذا يكفي يكفيني لأكون أسعد رجل في العالم ولكنك لم تشربي النخب ولهذا لا استطيع ان اصدق بأنك راضية عني

كان رأس ظفيره يدور من الزهو منير بك أسعد رجل في العالم لأنني راضية عنه ؟ انا ؟

وشربت النخب خليطا من الوسكي والبيره ولعل غياب زوجها هو الذي دفع بها إلى أن تشرب جرعة كبيرة كسبا للفرصة ، للشعور بأنها الآن في مكان لايعرفه أهل كفر سوسه القدماء ولا يحلمون بالتواجد في مثله

قال منير بك ملاحظا

ـ بالمناسبة لم أعلم أن في وسطكم نساء يرتدين الميني جوب ٠

ابتسمت ظفيره لقد انطلقت بسرعة وقالت

ـ انت محق هذا الثوب الذي تراه صنعته بنفسي من أجل أن أرتديه لحمدي وحده

ـ ولكن ها أنتذي ترتدينه لحمدي ولغيره

ـ نعم ٠ انا مضطرة ليس عندي غيره مناسبا لهذه الليلة ٠

قالت ذلك بعفوية ، وهي تنظر إلى الراقصات بصورة خاصة ٠
ورأى منير بك زوج ظفيره مقبلا فسكت والتفت إلى الراقصين

وبعد جلوس حمدي ، سأله منير بك
ـ ألا ترقصان ؟

قال حمدي

ـ لانعرف

قال منير بك

ـ بالتجربة يتعلم الانسان انهضا وجربا •

قال حمدي

ـ في مرة ثانية

كانت ظفيره تتمنى ذلك وقد منيت بالخيبة في رفض حمدي أن يقوما بالتجربة التجربة المثيرة

تجرعت بقية كأسها دفعة واحدة وكانت جرعة كبيرة احست بها خليطا من المرارة والحرارة في حلقها أدمع عينيها فضحكت لتغطي على ماحدث،وهي ترى حمدي يرمقها باستنكار •• أو على الاقل بعدم ارتياح

وسكب لها منير بك البيره وتحرّج من إضافة الوسكي بحضور حمدي لكنه أقنع نفسه بأن كأسا واحدة من الوسكي مع قنينة بيرة تكفيان لاطلاق الشارب المبتدىء من إسار التحفظ•

وبالفعل تورد وجه ظفيره وبد زاهيا بسحر فريد ، يرغم الرجل على لثمه وأصبحت ظفيره مرحة الحركات،تضحك لأي سبب فتبعث في الرجلين رغبة عنيفة بالأخص منير بك ، الذي جلس يتحرق إلى تطويقها بذراعيه وتقبيل وجهها وثغرها - وحسد حمدي وهو يتخيله يفعل ذلك وأكثر كل يوم هذا الصعلوك !

«٦»

وبالمرح نفسه هبطت ظفيره من السيارة في الحارة الغبراء ، وهتفت بلسان ثقيل

ـ تصبح على خير ، منير بك ٠

تحرّج حمدي من صوتها العالي ، خائفا من تنبه الجيران إلى وضع زوجته ، وقادها يدخلها البيت ٠ بينما تحركت سيارة منير بك مبتعدة ٠ قال حمدي

ـ اهدئي ، أتريدين أن تفضحينا

وهدأت ، ولكن ريثما دخلت غرفتهما عندئذ انفجرت ضاحكة وهي تطوح بيديها انتهرها حمدي

ـ اسكتي ما الذي يضحكك الآن ؟

ـ دخولنا بيتنا مثل اللصوص ٠

وقهقهت تضحك ولا يدري أحد لاظفيره ولا حمدي نفسه ، كيف ارتفعت يده ولطمها على فمها بكفه لطمة مفاجئة ألقت بها أرضا فجلست مندهشة تحملق فيه وسكن هو مندهشا يحملق فيها

كيف حدث هذا ؟

انه طبيعي بين الازواج الآخرين في الحارة لكنه بين ظفيره وحمدي أعجوبة ٠٠ حتى ان ظفيره نسيت ان تبكي ، رغم الألم الحاد الذي سببته اللطمة

ورأى حمدي شفتي زوجته تتنديان بالدم فركع أمامها متهولا يهتف

ـ ظفيره حدث هذا رغما عني دون وعي لا أدري كيف ٠

قالت ظفيره بعنف

ـ بل قل انها غيرتك لاتحسب انني غفلت عن نظراتك ٠ كانت الغيرة تنهش قلبك ونحن في المطعم وكـذلـك ونحن في السيارة

ـ أتريدين مني ألا أغار عليـك ؟ انت زوجتي والمـرأة الوحيدة التي أحببتها وأحبها حتى العباده

ـ ماشـاء الله يحبني حتى العبـادة ويضربني بهـــذه القسوة

ـ لقد تجاوزتِ حدود الأدب والحياء ٠

ـ أنـا ؟

ـ نعم ٠ في المرقص أو المطعم كما يسمونه ، كنت مائعة ، كثيرة الحركة والضحك

ـ مثلي مثل غيري هناك ٠ ما الفرق بيني وبينهن ؟

ـ الفرق انهن انهن المهم نحن جماعة شرفـاء يا ظفيره ٠ ويجب ان نحافظ على شرفنا ٠

ـ تعني ان هؤلاء ليسوا شرفاء

ـ لا أدري   بيننا وبينهم الله • وهم لايهمونني   ثم في السيارة   لم تكوني متحفظة

ـ متحفظة ؟

ـ لاتستطيعين الانكار   رأيت فخـذيك مكشـوفين حتى النهاية   منير بك رجل غريب عنك

ـ لكنه رجل راق   ومنظري شيء مألوف بالنسبة له

ـ إن مالاحظته لايثبت هذا   انه يشتهيك

ـ ماذا ؟ والله انك رجل مضحك

وقامت إلى وعاء الغسيل تبصق الدم وتغسل فمها منه   ثم خلعت فستانها وتمددت   فسارع حمدي إلى خلع ملابسه وهـو يتعجل الوصول إلى جسدها الذي جعله الشرب والمرح بلون الزهر •

لكن ظفيره ادارت له ظهرها

ـ ظفيره ! زعلت مني ؟

ـ انا مرهقة •

ـ انني اعتذر ، والمسامح كريم يا بنت الحلال •

وجعل حمدي يلمس مفاتنها بكفين دب فيهما سعير الشبق

أغمضت ظفيره عينيهـا   وفكرت   نعم   لاحظت إنـــه يشتهيني   لا فى هذه الليلة وحدها   لقد اشتهاني منذ وقعت عيناه علي وأنا ألف وسطي بمنشفة الحمام   وهذا هو سبب اهتمامه بنا • بالأحرى بي أنا • إن كل ما فعله من الحفاوة بنا لم يكن إلا من أجلي أنا • من أجل الوصول إليّ • لستُ غبية • لقد فهمت قصده منذ البداية

وتوقفت هنا لاتستطيع التقدم ولا الرجوع فالتقدم يعني ان تقرر تكون له أو لاتكون والقراران في منتهى الصعوبة وأما الرجوع فيعني ايضا الاقلاع عن صحبته وهذا صعب أيضا

تريدها تريد هذه الحياة بل انها هي الحياة الوحيدة. اما هذه التي تعيشها وحمدي ، يعيشها أهلها ، جيرانها،أهل هذه الحارة الحقيرة البائسة ، هذه ليست حياة ليست حياة انسان على الأقل انها حياة بهائم يجوز أما أن تكون حياتنا نحن حياتي أنا ! على رسله حمدي أما أنا فأرفض أن

ولكن اذا رفضت ماذا يفيد رفضها انها مرغمة اليست كذلك ؟ إلا إذا تركت حمدي إلى رجل مثل منير بك وهذه مسألة شائكة منير بك يريدها عشيقة حتما فهو متزوج ، وأولاده يقاربونها سنا كما تبينت من أحاديثه

احست بالقهر إنه اليأس اذن ياربي

وتندت عيناها بالدموع ثم تندت الوسادة

وكان حمدي يحترق شبقا ويداه تتحسسان مفاتن ظفيره جميعا وصوته الراعف يردد عبارات التشهي والولع الهذيانية ثم انه قلب ظفيره على ظهرها بعنف وهو ينهض راكعا فاذا بالكحل يشوه عينيها رأى الدموع فهدأت نفسه قليلا وهتف

ـ ظفيره قلت لك بأني ضربتك مرغما لم أكن واعيا سامحيني يا حبيبتي

ابتسمت مرغمة ، إزاء سخفه ، وقالت

ـ حسنا ، سامحتك

فانكب فوقها يقبلها فرحا ويعانقها بعنف وقد رجعت ثورة الشبق العنيفة ووجدت ظفيره نفسها منساقة معه،تطلب الابتعاد عن أفكارها القاتمة

الانسان لايعيش مرتين

« ١ »

جلس حمدي على الرصيف أمام المكتب، بعد أن ذهب مخدومه مع أحد العملاء ، وفكر بهذا الكون الذي يقوم على درجات

كم كان مغفلا قبل التحاقه بالعمل في هـذا المكتب كـان يسمع بوجود أثرياء أو يراهم عن بعد لكنـه لم يستطـع أن يتصور حياتهم بصورة دقيقة بالاحرى لم يفكر بأمرها تفكيرا جديا أو خاصا

وها هو الآن يعرفها ويعرف بعض أصحابها وشيئا من اسرارها

بين شقة منير بك وبين الستيريو عالم من الاحلام الحقيقية

يا حمدي حياة كان يسيرا على الله أن يعطيك بعضها « انني لا اطمع بالكثير يا ربي • فلماذا ؟ إن لم يكن من أجلي ، فمن أجل ظفيره الحلوة ، التي تستحق كنوز الارض كلها • »

اجتر هذه الأفكار متراخيا على كرسيه ، يرقب المارة بنظرة لا تستوعبهم تماما ثم اغفى قليلا ، حتى أفاق على صوت زمور سيارة حاد ، عبرت الشارع وقبل ان يعود إلى اغماض عينيه، لمح على شرفة مقابلة امرأة تنشر منشفة ومايوه سباحة نسائيا انها ترتدي ثوبا بيتيا خفيفا لافرق بينه وبين الشلحة فبدت مفاتنها لامعة أثارته إثارة قوية وقد تأكد لديه ان المرأة لاحظته ينظر إليها ، لكنها لم تبدِ اية مبالاة ، بالرغم من ان مظهرها كمظهر امرأة في غرفة النوم

واحسّ بندم متجدد على ضربه ظفيره ضربها بوحشية•• على ثغر أحلى من الوردة الجورية وأرق منها لماذا ؟! لم تكن عارية بهذا القدر الذي تعرض فيه نفسها هذه المرأة على الناس، علنا ، وفي ضوء النهار

سخط على نفسه وحين اختفت المرأة من الشرفة ، نهض يصنع الشاي ، وهو يقول لاحول ولا قوة إلا بالله !

« ٢ »

دخل حمدي بيته يحمل أوقية نموره لظفيره تاكيدا على ندمه لكنه فوجىء بها ترتدي ثوبا حديثا،جميلا خمريّ اللون، اضفى عليها مزيدا من الفتنة ، خاصة بقصره الكاشف عن فخذيها

قالت له ضاحكة

ـ انه من منير بك •

ـ منير بك ؟

ـ أحضر لي ثلاثة فساتين كل واحد أجمل من الآخر وحقيبة يد جلدية من صنع أوربا وحذاء يشكل معها طاقما

وكانت أثناء ذلك تنشر الفستانين الآخرين على السرير وتعرض له الحقيبة والحذاء

ـ ولكن لماذا ؟ بأية صفة

ـ هديّه

ـ هديه ؟

ـ نعم

وتنبه إلى أمر أهم

ـ تعنين انه حضر إلى هنا واجتمع بك في غيبتي ؟

ـ منير بك رجل أصولي ومهذب لم يـدخـل قال لي ارجو ان تقبلي هذه الهدية أردت ان أعطيها لزوجك لكني خفت ان لايقبلها

ـ الكلب ! إنه نذل إذن ، وليس ذلك الشهم الذي ظننته اخلعي هذا الفستان في الحال •

ـ لماذا ؟

ـ سأرد إليه هديته سأقول له إننا جماعة شرفاء ولسنا بحاجة إلى صدقته

ـ يا حمدي هذا لايجوز • إن النبيّ قبل الهدية •

ـ النبي قبلها وانا ارفضها فان لم يعجبك هذا ، فـأنت تعرفين الطريق إلى بيت أهلك

ـ حمدي ! أتهددني بالطلاق ؟

ـ تزوجتك شريفة ، ولكي تظلي زوجتي يجب أن تظلـي شريفة

ـ من يسمعك يظنني فرطت في شرفي

ـ قبول هدية من رجل غريب ، ماذا تسمينه ؟ بماذا فسرته جارتك ؟ ألم تكن موجودة ؟

ـ كانت موجودة وقلت لها بأنه خالي كان مهاجرا في البرازيل

ـ أيضا ؟!

ـ والآن ، اهدأ ، ودعنا نتناول العشاء •

ـ لن أهدأ حتى تخلعي هذا الفستان •

ـ ولكن يا حمدي •• بشرفك •• الا تراه جميلا ولائقـا بي

ـ نعم لا أنكر •• ولكنه ليس حلالا يا ظفيره •
ـ أأهون عليك أبقى في أسمـال الفقر ياحمدي ؟
ـ لا ، يشهد الله انني أحمل هم هذه المسالة ليل نهار
ـ وما الفائدة ؟

ـ سابذل جهدي لاشتري لك مثل هـذه الفساتين واجمـل منهـا

ـ حمدي ان كل واحد من هذه الفساتين بمئة ليرة عـلى الأقل مئة ليرة انت لاتحصل عليها إلا بالعمل شهرا بكاملـه •

نكّس رأسه • احس بالذلة تسحقه •

نعم هي محقة ولقد فكر بهذا دائما لكنه لم يُذّلـه إلى هذه الدرجة حين سمع ظفيره تقرصه به

ـ القصد يا ظفيره ؟

اقبلت عليه لطيفة حنونا

ـ حمدي يا حبيبي نقبل الهدية لن يضيرنا قبولنا لها ما دمنا لم نلمس من الرجل سوء النية

وفكر حمدي سوء النية ؟ إنه واضح إنه في مودته لنـا ونحن لسنا من عشرائه •

وتابعت ظفيره تقول

ـ حين تظهر منه أقل بادرة سوء نبصق في وجهه ، ونقطع علاقتنا به •

ثم بغنج أعظم ، وهي تضغط بجسدها كله على جسده

ـ اانت لاتثق بظفيرتك ؟

وأجابها حمدي بحدّة أطبق بذراعيه على جسدهاالرخص يهصره هصرا وبشفتيه على شفتيها يمتص الشهد الذي كان يراه يغلفهما ينز منهما ، ويُقسم على حقيقة ذلك

« ٣ »

غير ان الزوج المدنف قرر بتر العلاقة المشبوهة فحين سعى إليه منير بك في اليوم التالي ، في المكتب العقاري ، يلاطفه، قابله حمدي بجفاف أدهش منير بك ، الذي لم يبال ، وانما ساله

ـ كيف صحة المدام

ـ انها بخير وبالمناسبة ، اشكرك على هديتك

ـ انها مجرد تعبير متواضع عن مودتي لكم يا أخ حمدي

ـ بالنسبة لك متواضع أما لنا ·· فهو باهظ يامنير بك· لانستطيع تقديم ما يقابله ·

بل أنتم تقدمون لي ما هو أعظم من كل عرَض مادي يا أخ حمدي · هو صداقتكم

ـ صداقتنا ؟

ـ نعم إنها بالنسبة لي شرف عظيم وسعادة خالصة

ـ يا منير بك نحن أناس من الحضيض ، وانت من

قاطعه منير

ـ انت مخطىء يا أخ حمدي هذه نظرة قديمة للانسان أنا استنكرها الناس جميعا إخوة ، ما دام ربهم واحدا

ـ هذا صحيح · لكن الله خلق الناس درجات ·

ـ وهذا لايمنع من أن يكونوا إخوة

ـ يامنير بك أرجوك إذا كنت حريصا حقا على راحتنا أنا وظفيره ، فانني أرجوك أن تبتعد عنا ٠

نظر إليه منير بك مقطبا ، مندهشا ، فتابع حمدي معتذرا

ـ أهل الحارة لاحظوا وأهل ظفيره علموا بسهرتنا وخاصة بِسُكْر ظفيره فغضبوا وهددوني بالقتل المهم ٠نحن من وسط لايسيغ خروجنا على الحشمة والتحفظ

ذلك كله اعتذار مختلق أدركه منير بك فبادر إلى الغواية

ـ من هذه الناحية الحق معك لكن هذا خطأ الانسان يجب أن يعيش حياته حرا على كل حال اسمع يمكنك ان تترك كفر سوسه وتقيم في أبي رمانة مثلا بذلك تبتعد عن عقلية حيّك البالية

قال حمدي

ـ هيهات أنا أقيم في أبي رمانة ؟

ـ ولم لا ؟ أنا عندي شقة صغيرة مفروشة اعتدت تأجيرها للأجانب يمكنني الاستغناء عن إيجارها ٠ ولا ريب في ان السيدة ظفيره ستكون سعيدة بالسكنى في هذه الشقة ٠

ـ لا ٠ لن يوافق أهلها ٠

ـ انها زوجتك وتكفي موافقتك

ـ أنا أيضا لا أوافق

ـ لماذا ؟

ـ لأنني لأن ظفيره صغيرة ٠٠لاتستغني عمن يكونقريبا منها ، من أهلي او أهلها ٠

ضحك منير بك ، وقال

ـ هذه الاعذار غير مقنعة وانما يبدو لي انك تحب الفقر

ـ يا منير بك ما من إنسان يحب الفقر

ـ اانت مصر إذن على البقاء في كفر سومه ؟

ـ هي ذي قسمتي ٠

ـ ومصر أيضا على قطع علاقتنا ؟

ـ نعم ، منير بك ، مع الاسف ٠

ـ يا أخ حمدي ٠٠ قل بصراحة هل لمست مني مايسيء اليك او إلى السيدة ظفيره

ـ لا ، معاذ الله منير بك ٠

ـ واذن ؟

ـ قلت لك بأن أهل الحارة لاحظوا وأنا لا أريد ان يظنوا بنا الظنون ٠

ـ إنهم أناس رعاع وبهائم ثم إنك وظفيره حران فيعيش حياتكما الخاصة كما تحبان وترغبان ياسيد حمدي٠٠الانسان لا يعيش مرتين٠فلماذا يحرم نفسه ولا يتمتع بحياته بكل حرية؟

« ٤ »

تمتع حمدي بالارتياح أبعد الهم عن نفسه بابعاد منير بك وهذا يكفيه ما هي السعادة إن لم تكن الاطمئنان إلى ما تملكه ؟

إن ما يملكه حمدي أعز من المال والذهب وفيه وبه سعادته وحياته

لكن ظفيره أبدت استياءها من هذه القناعة بطريقة غير مباشرة وإن تكن قابلت حديثه عما دار بينه وبين منير بك بالحياد قالت له

ـ هذا أفضل ، ما دامت صحبته تزعجك الطاقة التي تأتيك منها الريح سُدَّها لتستريح

وفي الأيام التالية لاحظ حمدي كآبة مستديمة تعكر صفاء الوجه المعبود كلما رجع من عمله بعد العِشاء

ـ ما بك يا ظفورتي ؟

ـ لاشيء سوى الضجر

ـ وممَ الضجر فدتك نفسي ؟

ـ من انحباسي هذا في البيت

ـ ألست تخرجين في النهار ؟

ـ أخرج إلى أين ؟

ـ إلى بيت أهلك أهلي عمتك

ـ بيوتهم مثل بيتي   زرية مقرفة

ويضحك حمدي

ـ تريدين ان نذهب إلى الستيريو ؟

ـ أنحن نقدر على هذا ياحسرتي ؟

ـ ربك كريم ياظفيره

ـ كرمه لمن يعمل ويجد

ـ إنني أعمل وأجد   غدا يتبدل حالنا   ماعلينـا إلا أن نصبر على المُرّة ونتجلد   حتى نفوز بحلاوة الدنيا   هيـا الآن . دعينا نخرج ونتمشى   لتروحي عن نفسك

ويتمشيان في طرقات خشنة غبراء   لاترى فيها ظفـيره سوى ما ألفته من أسباب كآبتها   وحمدي مسترسل في الحديث عن الغد الأفضل   حين يعمل في عمل آخر يجمع منـه عشرين الف ليرة .. يبدأ بها عملا تجاريا   كالاعمار مثلا .. ويربح مئات الألوف .. يهيىء بها لظفيره ما يتمناه لها من نعيم

ويعودان إلى الحجرة   ظفيره تعود بشعور العائـد إلى السجن   وحمدي بشعور الداخل إلى الفردوس   بلهفة العاشق المدنف إلى وصال المعشوق

يعريها وهي ساكنة   ويمتلك جسدها خاشعـا   يـذيب نفسـه فيه   وهي نائية عنه في البداية .. متضايقة من بعد حتى انها كرهت هذا الفراش في النهاية   ولجأت بخيالهـا إلى فراش آخر وثير   يمتلك كيانها عليه رجل آخر   بالتحديد منير بك .. لم التحرّج ؟

وكان منير بك ينتظر منها الخلاص من هذا الحرج كـان على ثقة من نجاح خطته إلى حد انه أقبل بسيارته ، وترجل منها، دون تردد ، أمام باب الـدار وقرع البـاب واذ فتحت لـه الجارة قال لها بكل مودة وتلطف

ـ انني آسف لازعاجك يا مدام لو سمحت ، فانني أريد ان أكلم ابنة أختي ظفيره

قالت لها الجاره

ـ ما أظرفه من رجل خالك هذا يا ظفيره ! انه لايبدو من وسطنا لفرط تهذيبه وكياسته بل إنه يبدو وكأنه ولـد في وسط الأكابر وتربى بينهم

قالت ظفيره وهي تنهي ارتداء ثوبها عاجلة

ـ إنه المال ياجارتي يغيّر مالا يتغيّر ويجعل الصعلوك أميرا

وخرجت إليه ترحب به ببساطة قال لها

ـ اعذريني ٠٠لكنني لم أصبر على هذه القطيعة التيأرادها الأخ حمدي

قالت

ـ حمدي يغار عليّ من النسيم

قال

ـ محق هو يامدام   لو كنت زوجتي لحرصت عليك أكثـر من حرصه ، ولخبأتك تحت رموش عينيّ ٠

وإذ أطرقت من حياء ، لم يفته ان يلاحظ انعكاس ماشعرت به من السعادة بكلماته على وجهها الصبوح ، الذي تـلألأ مثلمـا يتلألأ الورد بندى الصباح ٠ قال لها

ـ على كل حال ٠٠ أتمنى ان يفهم الأخ حمدي ان افتتـاني بك لايعني أي نيّة سيئة   أريدها مودة خالصة ، وعلاقةطاهرة شريفة   فأنت خلقت ليعبدك الرجـل ، دون أن يمس طهـر جمالك   فالنساء كثيرات لتصريف الشهوة   أما أنت٠٠فوحيدة في هذا العالم   وعلى المرء ان يقدسك ٠

ورغم انها لم ترفع عينيها عن الارض ، إلا أنها كانتتراه٠ رأته أروع الرجال ، واحست بأنه يأسرهـا ويمتلكها تمامـا فأحبته ، وهي تحس بأنه الرجل الذي كان عليها أن تكـون لـه منذ البداية ٠

والح على أن يلتقيا ٠

ـ ستعرفين على الأقل نبل قصدي ، إذ نلتقي   فلا ترين‌مني إلا الاحترام والتقديس   يؤكد لك هذا أن لقاءنا لن يكون إلا في مكان عـام ، يؤمـه اكابـر الناس ، من الأزواج والعشاق وبهذا تأمنين على نفسك مني ٠٠ إن كنت لاتثقين بي

خطر لها في الحال ذلــك المطعم وجوه الراقي البهيــج •
سألته دون تدبر

ـ أين ؟ في المطعم الذي سهرنا فيه ؟

ـ فيه وفي غيره • سآخذك الى كل مكان مثله يجب أن تتمتعي بالدنيا يا مــدام أنت شابة رائعة الحسن ، وحرام أن تدفني شبابك الغض وجمالك في هذا البيت وحده أو في هذه الحارة الوضيعة

آه يا منير نكأت جرحي فكأني علمت أن هذا هــو همي الكبير !

ـ ما رأيــك ؟

قالت ظفيره

ـ أخشى من غيرة زوجي

ـ من أين له أن يعلم ؟

ـ قد يرانا أحد فيشي بي

ـ رواد الاماكن التي سنلتقي فيها لا يعرفونك

ومــع ذلك هــي خائفة من هــذه التجربة التي باتت همّ حياتها • تتوق اليها ، تحلم بها ، تريدها ولو دفعت نصف عمرها ثمنا لها لكنها تخشى الناس

وانهى منير التردد

ـ حسنا ، اتفقنا • ما عليك ، غدا في مثل هذه الدقيقة ، الا أن تقفي عــلى رصيف محطــة الحجاز وسأمر بسيارتي فأحملك بصورة طبيعية لا تلفت النظر الى اللقاء

وتحرك الى سيارته قبل ان يسمع منها موافقة أو رفضا
وتحركت السيارة ، وظفيره تنظر اليها نظرة المغرمة المتصبية ..
الى السيارة ، الى صاحبها ، الى كل ما يعنيه ذكر منير بك !

واذ أغلقت الباب ودخلت تطوح بيديها كما تفعل طفلة فرحة برزت الجارة من غرفتها تسالها

ـ لماذا لم يدخل ؟

ـ انه على غير وفاق مع زوجي ، ولا يريد لذلك أن يوقع بيني وبينه .

ـ ولماذا عدم الوفاق هذا ؟ انه لطيف ومحبب
ـ حمدي عسير فضلا عن انه يغار منه لانه غني
ـ يغار من خالك ، شقيق أمك ؟
ـ تصوري الى أين يصل السخف بالرجال أحيانا

لـب المســألة

« ١ »

مثلما يحدث لكفتي الميزان يطغى ثقل احداهما عــلى ثقل الأخرى حدث للزوجين اختل التوازن بينهما وكانت ظفيره هي الطاغية انها معشوقة منير بك فمن هو حمدي ؟

ازدادت هي ميلا للصمت وكثرت ثرثرة حمدي

وكلما أغرقت في اهماله واعراضها عنه ازداد هو جنونا بها ولم يكـن يلقى لجنونه البرد والسـلام في جحيم ظفـيره المحبب كما كان يلقاهما في السابق

ولقيها دائما في فستان وحيد فستان الشغل لم تعد ترتدي له فساتين الميني جوب تلك هدية منير بك

لـماذا ؟
ـ لم اعد اطيقها انها تثير غيرتك الباب الذي تأتيك
منه الريح ، اغلقه لتستريح

احس بالسعادة ظفيره يا رائعة النساء !

لكنـه احتضن جسدا آخر جسدا كـان شمعة مضيئـة
وانطفأ ·· بفعل تلك الريح نفسها التي تحدثت عنها ظفيره
وان لم يدرك حمدي هذه الحقيقة · فالمراة ـ رغم صغر سنها ـ
خدعته بسهولة خداع الكبار للصغار

وظل حمدي يقول لنفسه يا للعجب !

وفكر أيكون أحد قد عمل لها سحرا ؟

وخطر له منير بك مرارا لكن ما بـدا على ظفيره مـن
براءة دائمة براءتها القديمة نفسها حين خطبها وتزوجها ،
وكذلك يقينه بأن منير بك خرج من حياتهما نهائيا ، منذ أشهر ،
جعلاه يستبعد هذا الخاطر في كل مرة ، ويعتبره مجرد وسواس
يستعيذ منه بالله،ويسخر من نفسه اذ يخطر له مثل هذا الخاطر·
ظفيره ؟ أعوذ بالله مستحيل ·انها أطهر النساء ويؤكد لـه
هذا منظر ظفيره نفسه وجهها الملائكي السمات ، الذي يوحي
ببراءة الاطفال وطهارة الأجنّة

مع ذلك فان ظفيرة تغيّرت · لا ريب في هذا

فجـأة ؟

لا فان حمدي أنشأ يستحضر الذكرياتالسالفة ، ويفرز
منها مـا يؤكد تبدل ظفيرة ، وان لـم يعره الاهتمام في حينه ·

وتوقف يفكر طويلا في أهم مظاهر هذا التبدل منذ متى ـ بالضبط ـ لم تعد ترغب في الوصال ؟

انها في غالب الليالي تدعي التعب أو الصداع ، حين يقاربها • وحتى في الليالي التي لم تمانعه فيها كانت تعطيه جسدها دون روح

شيء آخر كثرة تذمرها من حياة الفقر من عيشها في بيت مشترك ، مع أسرة ثانية ، ومن الحارة التي تصفها بالوضيعة ! من أين جاءت بهذا الوصف ؟

وشيء ثالث ترديدها له في كل مناسبة بأنه مجرد أجير خادم بثلاث ليرات

أقادر هو على أن يعمل عملا آخر يربح منه آلاف الليرات وتقاعس عن ذلك ؟

من يحب الفقر ؟

انه يحب ظفيره هي له الحياة والدنيا والآخرة هي هناءته الوحيدة سعادته وكل شيء في حياته ولو ملك الدنيا لن يهنأ ولن يرضى ، اذا لم تكن ظفيرة له له وحده

فماذا يفعل ؟

« ٢ »

امتلأت نفسه بالنفور من نمط الحيـاة الذي يعيشه وثقلت هذه النفس بالأفكار والأحلام والهم ، حتى أصبح رجلا خاملا يميل الى الجلوس والارتخاء ويكـره الحركة · واذا تحرك ، مرغما بدت حركته ثقيلة

لم يعد غافلا عن سبب تبدل ظفيرة هذا التبدل الفاجع

انهما ليلتان قضت احداهما في شقة منير بك الفخمة وقضت الثانية في ذلك الاستريو اللعين

معذورة هي

ولكن ما ذنبه هو ؟

لم يكن يملك غير التسليم بأن الله جعل الناس درجات

وكانت ظفيرة تضيق بهذا التسليم حتى انهـا صرخت فيه ذات يوم

– أنت هو الخامل أنت العاجز

– يا ظفيره أنا مستعد للموت في سبيل سعادتك

– آه كرمى لله أقلع عـن كلامـك الرخيص هذا بات يضجرني

– على رسلك ، هـذه هـي حالنا ، وانا ليس في يدي أن اعطيك اكثر

ونام كل منهما معطيا ظهره للآخر

واذ أفـاق حمدي في الصباح ، ورأى جسدهـا بجانبه ، تزهر فيه الفتنة أحس بشهوته لهـا تتحرك بعنف البركان

لكن ظفيرة تذمرت

ـ أتوقظني من النوم من أجل شهوتك ؟ حقاً انك رجل أنانـي

ـ يا ظفيره انني أحبك أحبك

ـ أتركني نائمة واذهب الى عملك اذا تأخرت طردك سيدك وحـُرمنا من نعمة الليرات الثلاث

وعانقت طرف الوسادة مـُكبـّة على وجهها واغمضت عينيهـا

« ٣ »

ـ إذا تأخرت طردك سيدك وحـُرمنا من نعمـة الليرات الثلاث .

ظفيره الآن ، تتعمد جرحه بمثل هذه الاهانة
ولكن المسألة في الحقيقة تنطوي على خطر أعظم
ظفيره لم تعد له !
أيمكن هذا ياربي ؟
كيف ؟

إنها روحه وحياته هي موته أيضا

شعر بفراغ مريع في جوفه كجائع لم يدخل معدته طعام منذ أيام وكذلك احس بقلبه يوشك على الانسحاق تحت وطأة الهاجس الملعون

ظفيره لم تعد لك !

لمن إذن ؟

من اخذها مني ؟

من استولى عليها ؟

شقة منير بك ؟ سيارته ؟ الستيريو ؟ الفساتين الثلاثة ؟ أم ٠٠٠؟

وبالرغم من ان منير بك تجسم في خياله ، حتى كاد ان يراه ماثلا بشخصه حقيقة أمامه إلا انه لم يستطع ان يتم السؤال باسمه فهو لا يجرؤ على التصور مجرد ان يتصور ذلك أو يخطر له في البال ٠

وحاول ان يطرده لا ٠ لقد قطعنا علاقتنا به ، ولم تره ظفيره أو يرها منذ عدة اشهر

لكن شبح منير بك ظل ماثلا امامه بوقاحة عجيبة يحاول أن يفرض نفسه على أفكار حمدي ، كما حاول أن يفرض صداقته من قبل ٠

صداقته ؟ أما زلت تقول صداقته ، ياحمدي ؟

سأله فوزي

- مابالك ، حمدي ؟
- لاشيء ٠

ـ انت دائم الشرود في هذه الأيام · وتبدو مهموما ، خير ان شاء الله ؟

ـ همي كبير يامعلمي لايحمله جبل

ـ الحصر هو الذي يكبّر الهم يابني

ـ اعرف ولكن همي كبير دون حصر يامعلمي

ـ أيمكنني معرفة السبب ؟

وأخلد حمدي إلى الصمت السبب ؟

أعظم ما في هذه المصيبة انها لاتُروى لاحد لاتباح لأخلص الاصدقاء رغم ان المطربين يملأون الدنيا بأغانيهم التي تشكو من هذه المصيبة تبوح بها علنا ، لكل الناس

ومن عجب إننا نطرب من هذه الاغاني

قال فوزي

ـ الظاهر إنها مسألة عائلية

نعم مسألة عائلية ولكنها فريدة في المسائل العائلية ياسيد فوزي إنها مسألة ظفيره ، وانقلابها مسألة حياتي

ـ تكلم اعتبرني أخاك الأكبر ربما أفدتك

قال حمدي

ـ إننا فقراء يا معلمي

تساءل فوزي

ـ ما علاقة الفقر بمسألتك ؟

قال حمدي

ـ بلى يا معلمي إنه أساس المسألة

وتأمله فوزي يحاول ان يعرف ان كان مازحا يتهرب من البوح بما يجعله مهموما ، ام إنه جاد • قال حمدي

ـ ساسألك سؤالا •

ـ إسأل •

ـ هل تحب الفقر ؟

قال فوزي

ـ من تراه يحب الفقر ؟

ـ زوجتي تتهمني بأنني احب الفقر

ضحك فوزي ضحكة عريضة ومتطاولة ، وهو يترنح

وتابع حمدي لنفسه « بينما انا احب ظفيره واعبد ظفيره ومن اجلها كرهت الفقر قبلها لم أكن احمل اية عاطفة للفقر • لا محبة ولا كرها • ولكنني ، بعد أن رأيتها وحلمت بالزواج منها ، أحسست بقسوة الفقر ، فكرهته كرها أبديا »

قال فوزي

ـ هذه قصة قديمة يا حمدي جميع الازواج الفقراء يعانون منها على كل حال ، يمكنك ان تلهيها عن إحساسها بالفقر

ـ كيف ؟

ـ بالمعاملة اللطيفة ، والمداعبة • بذلك تراك بعين الرضا دائما ، فلا يعود الفقر يعيبك لديها •

وابتسم حمدي

أصدق من ؟

امه لاحظت أحواله وأحوال زوجته وأنبته قائلة

ـ أطمعتها فيك حتى لم تعد تحترمك وتسأل عن راحتك •
.هذه نتيجة طبيعية لتهافتك عليها وتدليلك لها كان يجب ان تعاملها بصفتك رجلا تقسو حيث تجب القسوة وتسامح حين تكون المسامحة نبلا ، وليست ضعفا •

قال لها

ـ والمحب الولهان ماذا يفعل يا أمي غير أن يحب المحبوب ويذوب فيه !

قالت منزعجة

ـ احمل وزر ضعفك اذن

وكانت تقول هذا باحتقار أيضا

وبعد موقف امه هذا أخذ يقسو على ظفيره بالفعل يشتمها ويضربها ويندم أحيانا وأحيانا يبكي من شدة الندم ولم تنفع القسوة ، بل ازدادت ظفيرة ابتعادا عنه فقد كان يظهر لها ندمه ، ويطلب الوصال بعد الشجار

من يخبره بالصدق ؟

امه مخطئة في رأيها والسيد فوزي مخطىء أيضا

الحب والملاطفة ؟

ما رايك انت ياظفيره الراي الـذي أصبحت ترددينـه لي دائما ؟

ـ اقلع عن كلامك الرخيص هذا بات يضجرني

ارايت إذن ياسيد فوزي ؟

مسالتي عويصـه لو كانت امراة أخرى غير ظفيره لمـا همتني ولكانت المسألة هينة

اما وأن ظفيره بالذات هي لب المسالة ··فمسالتي عويصة·

« ٤ »

هي ذي الصورة التي صارت إليها حياتنـا · أنـا أجلس أتأملها وهي متمددة بارتخاء كامل تعلك اللبـان وتسمـع أغاني الحب من المذياع الصغير

إنه يتحرق لوعة وحسرة وهي بعيدة عنه بعيدة ، رخية البال ·

ولاحظ حمدي بعض الامتلاء طرأ على جسدها،زادهوزادها روعة منظر ، واصبحت شهية أكثر قال متحرشا

ـ ألاحظ انك سمنت في هذه الايام

ـ حقا ؟

ـ وازددت جمالا ·

ابتسمت ولم تجد ما تقوله له · وتحرك فيه أمل متشبث:

ـ أحبك ياظفيره · احبك أكثر مما احببت امي وابي

ابتسمت مرة أخرى

ـ ظفيره أتحبينني ؟

انطفات ابتسامتها وسدرت تبحث عن الجواب المناسب. وتسارعت دقات قلبه من خوف . ثم قالت

ـ ما هي مناسبة هذا السؤال ؟

قال

ـ أتلزم المحبين مناسبات لتبادل الحب ؟

ـ لا . انت محق

ـ أتحبينني ياظفيره

ـ طبعا أحبك

اقترب يجلس على حافة السرير لصقها مواجها وجهها

ـ اقسمي لي فاني اكاد لا اصدق انك تحبينني

ـ أقسم لك

ـ اقسمي بالله

ـ اقسم بالله

ـ وبشرفك

ـ بشرفي

ـ بأمك وأبيك واخوتك

ـ بامي وأبي واخوتي

ـ على انك تحبينني .

ـ على اني احبك .

ـ وعلى انك مخلصة لي

ـ وعلى اني مخلصة لك .

واحس بقلبه عصفورا في قفص يحـاول الخروج منـه والتحليق في سماوات بعيدة وفسيحه امسك برسغيهـا ولثم يديها ثم اقترب أكثر ، حضن وجهها الصغير الناعم بكفيـه الراعفين ، وحملق في عينيها وفي شفتيهـا لثم الشفتين ثـم لثم العينين ، وهو يردد لها

ـ أحبك أحبك أحبك

واعقب هذا محاولات عديدة حتى تم الوصال ، بارتيـاح عميق احس به ، بعد أشهر لان ظفيره استجابت له تمـامـا ، وبحيوية مفاجئة

وبذلك قال حمدي

ـ الحمد لله • ظفيره رجعت لي لا شك في أنهـا كانت نزوة •

وتبدلت الصورة بذلك فجاة •

على الطريق وحدي .. ياظفيره

« ١ »

هبت نسمة خريفية باردة ، أسقطت عددا كبيرا مما تبقى للاشجار من أوراقها الصفراء

وتكاثرت أوراق النعوات أيضا ، تلصق على الجدران

إنها نهاية الخريف

وعن ظاهرة تكاثر الموتى في الخريف ، بدأ الحـديث بين صاحب المكتب العقاري ، وبين عميله منير بك ، الذي مر به على غير انتظار ثم إن منير بك نقل الحديث إلى غايته

ـ الغريب ياأبا الفوز ان حركة العمران في البلد نشطت نشاطا كبيرا

قال فوزي

ـ فعلا • رغم كساد حركة الايجار والاستئجار

ـ البناء للبيع بات أربح من البناء للايجار

ـ هذا صحيح • بسبب غلاء الاراضي• وهو على كل حال آمن للتجار ، من صروف الدهر

وقال منير بك

ـ كنت طيلة الاسبوع الماضي في بيروت ، أبحث عن باب جديد لتوسيع تجارتي ، فلم أجد أفضل من باب البناء

ولا يدري حمدي ما الذي أثاره في الخبر ولماذا خطر له أن يسأل

ـ متى رجعت من بيروت ، منير بك ؟

قال الوجيه دون مبالاة

ـ الليلة البارحة •

وتابع حديثه دون توقف • فمنذ شهور لم يعد يهتم بحمدي •• حتى إنه حين دخل المكتب العقاري اكتفى بتحية باردة، خيل لحمدي انها أ ُلقيت إليه مبطنة باحتقار وربما بسخرية • لماذا ؟

وفكر حمدي الآن الليلة البارحة ؟

وقد قضّى منير بك أسبوعا في بيروت • أي انه كان غائبا عن دمشق مدة أسبوع ••• هو الاسبوع الماضي بالضبط

ما الذي يعنيه هذا ؟

مهلا

ورجع حمدي إلى محاولة استخلاص فكرة معينة من خليط الافكار الذي ملأ رأسه وشوش البصيره عليه أن يرتب هـذه الأفكار بصورة تمكنه من التوصل إلى الفكرة المقصودة

كان منهمكا في ذلك العمل حين نهض منير بك ينصرف من المكتب وأثناء مغادرته المكتب رمـق حمـدي بنظرة باسمة جانبية حملت بوضوح فاجـر ذلك الاحتقار أو تلك السخرية

من عجبٍ ان هذا قد ساعد حمدي في الوصول إلى فكرتـه تلك

مهـلا

الأولى منير بك في بيروت طيلة الاسبـوع المـاضي حتى الليلة البارحة

الثانية في بداية الاسبوع الماضي ازدادت ظفيره عصبيـة وضجرا ، وصارت سريعة البكاء أكثر من قبل

الثالثة ليلة البارحة فجأة عادت إليـه ظفيره أو هكذا خيّل إليه المهم انها أعطته جسدها بحيوية كاملة ، لأول مرة منذ شهور

وانطلقت عندئذ شرارة متوهجة مثل قـذيفـة الضـوء الكشاف فوق موقع العدوّ

رُوِّع حمدي

أيمكن هذا ؟

ولكن كيف أمكن لها هذا ؟

لا ، إن ظفيره ليست من النوع الذي يصل به الامر الى هذا الحد قد تتذمر من الفقر تكره الدنيا بسبب الفقر تكرهني انا .. لكنها تبقى ظفيره الدرويشة ، الطاهرة العفيفة، التي أحببتها

على ان الانسان قابل للتبدل يا حمدي . أليس كذلك ؟

بعد أن رأت ظفيرتك تلك الشقة ، عاشت فيها ليلة ، وبعد سهرة في ذلك الستريو وسيارة منير بك وفساتينه تفتحت عيناها وتفتحت نفسها لم لا ؟ أنت نفسك لم تعد ذلك الحمدي القنوع بعد أن رأيتَ ما رأيته والمرأة أطوع نفسا من الرجل لهذا النوع من الاغراءات .

نعم نعم ، هذا صحيح . لكن ظفيرة في جانب ونساء الارض جميعا في جانب مقابل انها ظفيرة أليست كذلك ؟ تتغيَّر ؟ طبيعي تتوق الى الحياة المنعمة طبيعي أيضا أما ان تسقط هذا النوع من السقوط

« ٢ »

لم يصل الى يقين وظل الشك يعذبه بذلك الحوار العبثي .

وحين وصل بيته في المساء ، وجد ظفيرة في حلة جديدة ترتدي بنطالا ضيقا أبيض اللون ، يشف عن سروالها ، وفوقه ترتدي سترة حمراء قصيرة تنتهي فوق الردفين باطار ضيق

استقبلته زاهية في هذه الحلة ، مثيرة ، تبتسم وهي تهتف:

ـ ما رأيك ؟ ألا أبذ بنات أبي رمانة ؟

هـذا صحيح انها تبذهن وتبذ بنات الدنيا كلهـا ولكن

ـ من أين لك هذه الثياب ؟

ـ هدية من ابنة عمتي سميرة

ـ هل جاءت من الكويت ؟

ـ نعم مساء البارحة

ـ بعد ان اوشكنا على الدخول في الشتاء ؟

ـ هي لم تأت للاصطياف انها حامل في أخريات أيام الحمل ، وتريد أن تلد في دمشق لتكون في رعاية امها

جلس وقد فارقه الروع الذي كاد ان يسحق قلبـه وهو يراها لأول وهلة

ـ لم تقل لي ، ما رأيك ؟

ـ إنها ثياب جميلة

ـ وأنا ؟ كيف أبدو فيها ؟

ـ أروع النساء

ضحكت مرحة ووضعت له العشاء وجن افتنانا بها ولكن عندما أطفأ النور واشعل النواسة وحضن جسدها بشبقه المتفجر تململت ضجرة وقالت له

ـ اعفني الليلة كرمى لله فانني متعبة ونعسانة رجعنـا ؟

لم يعد يريد إشباع نهمه الى جسدها بقدر ما كان يريد اليقين لهذا تشبث بجسدها أكثر فراح يمرغ وجهه عـلى

صدرها ، ويتحسس بكفيه عنقهــا وظهرهــا وخاصرتيها كــل مكان يعرف انــه يثير شهوتها متغزلا بها بكــل كلام أوحاه له جنونه بها • وظلت ساكنة ، لا تتكلم فبذل محاولة أخــيرة اراد ان يعريها تماما حينئذ هتفت ضجرة

ـ يا حمدي اتركني أنم ، هذا الامر لا يتم بالاجبار أليس عندك ذوق ؟

ـ بلى يا ظفيرة ، لكنني أتعذب ، واريد أن أطمئن

ـ تطمئن على ماذا ؟

ـ على أنك لي على انك لا تخونينني

حملقت فيه غاضبة ، فقال

ـ نعم إحس بأنك تخونيني

هبت تجلس وقد تحولت ملامحها الى ملامح نمرة غضوب

ـ ألا تستحي ؟ الا يخجلك ان تتلفظ بهذا الكلام ؟

ـ اعذريني يا ظفيره إنني أتعذب أتعذب •

ـ ما دامت المسألة قد وصلت بك الى حد اتهامي بهــذه التهمة المهينة ، فالأفضل الا نستمر في عيشنا معا

ـ ماذا ؟

ـ نعم طلقني

ـ ظفيرة ! اأنت مجنونة ؟

ـ انت هو المجنون

ـ برهني لي على انك بريئة وسأعتذر لك

ـ إنني بريئة وشريفة أكثر منك

ـ برهني لي •

ـ كيف ؟

ـ لا أدري   المهم انني أريد البرهان ٠

ـ في جسدي   أليس هذا ما تريده ؟

وبلحظة خاطفة خلعت ما عليها من ثياب داخلية ، وتمددت على ظهرها

ـ تفضل   اقض شهوتك

نظر اليها مرتاعا   بدت له بعيدة كل البعد عن ظفيرة التي أحبها ، بدت له امرأة أخرى ، وهي متمددة على هذا النحو تنظر اليه نظرة ساخرة   وبدا عريها وقحا قذرا   مثل عري امرأة ساقطة

أغمض عينيه قبل ان يشيح عنها بوجهه   وأحس بشيء ما في داخله يتحطم   فجلس دافنا وجهه بكفيه   وسمع صوتها ساخرا

ـ ما بك ؟ أليس هذا ما تريده ؟

ـ لا ياظفيرة   نامي

ـ الآن   بعد ان أفسدت نومي ؟

ـ لن أزعجك بعد الليلة

ـ حمدي   خذها مني نصيحة غالية   لا تجعل الشك يتسلط عليك   سوف يسمم حياتنا   ويجعلنا أتعس الناس ثم   إنه مهين للرجل أن يعيش مع امرأة لا يثق بها   ومهين للمرأة أيضا ان تكون موضع شك   وفي شرفها

ـ اعرف هذا ٠ لكنك انت السبب ٠

ـ ماذا فعلتُ أنا ؟

ـ تغيَّرت بسرعة يا ظفيرة

ـ حسنا ، حمدي ما دام الامر وصل بنا الى هذا الحد من عدم التفاهم يمكنك ان تطلقني أرى ان هذا أريح لنا نحن الاثنين

انتابته نوبة من جنون حاد ، وهو يسمعها تقترح ذلك بهدوء المقتنع بما يقول وكانت لا تزال على الوضع العاهر الذي اتخذته قبل دقائق انقض عليها يصفعها على كل مكان من جسدها بعد أن حمت وجهها بكفيها فلم يتمكن منه

أقلع فجأة عن ضربها إذ تنبه الى أنها استسلمت لضربه دون مقاومة ووقف ينظر اليها مندهشا

اعتدلت ظفيرة ونظرت الى زوجها بعينين متحديتين صارمتين ، جعلتاه يتزعزع نعم لن تكون له الغلبة ، بهذه الطريقة

لكنه يستطيع ان يؤكد بأنه لم يطلب الغلبة حين ضربها أكان مدفوعا برغبة في تحطيم الحاجز بينهما ؟ أكان يريد قتل شيطان تلبس ظفيره حتى غيرها هكذا وجعلها تطلب الطلاق ؟

تزعزع .

وجلس على المقعد الوحيد في الغرفة وظلت هي على السرير متكئة بظهرها على الوسادة ، تحملق في فراغ الغرفة البائسة

لعلها على حق لا بد من الطلاق .

ولكـــنه يخسرها بذلـــك تماما يخسر ظفيرة روحــه وحياته

نظر اليها ظفيرة الحلوة الناعمة التي تساوي كنوز الارض كلها وقرصته ندامة حادة بدت له مسكينة ، ضعيفة، في وضعها ذاك ، بدت له بائسة

حقا ! لماذا لا يكون قد ظلمها ؟
من أين يأتيه هذا الشك اللعين ؟
لاريب في ان الشيطان تلبسه هو ولم يتلبس ظفيره

نهض حمدي إليها عانقها ولثم وجهها بحنان وولــه فاستجابت له ظفيره مستسلمة استسلام النـــادم أيضـــا ثم ان دموعها اختلطت بدموعه وكان الوصال رائعا كما كان في الأيام الخوالي

« ٣ »

غير ان حمدي لم يشعر بالارتياح وهـــو يـــؤدي عملـــه البسيط الخامل في خدمة السمسار وعملائه

كان الوصال رائعا وأحس بظفيره بين يديـــه ناعمة أنيسة يرضيه تماما عطاؤها وبدت راضية أيضا

وكان يمكن لحمدي أن ينعم بمشاعر الرضا التي نام عليها وأصبح لولا ان شوارع أبي رمانه الغاصة بالسيارات الفخمة، ولولا ان شرفات بيوت أبي رمانه إذ أقبل على عمله ، بـــدأت تخدش صفاء تلك المشاعر بايحاءاتها الشبيهة بمخالب الثعالب٠

وكذلك حديث الارقام الذي كان من قبل يدهشه ويسليه ، بين سيده وبين عملائه زعزع الثقة بنفسه

وإذ انتصف النهار ، وجد انه لم يعد قادرا على تحمل افكاره المتضاربة دون الوصول إلى اليقين يجب ان يقوم بخطوة عملية ٠

استأذن سيده بالغياب لمدة ساعة واندفع إلى بيت عمة ظفيره ، التي فتحت له الباب بنفسها

– جئت أرى ان كانت ظفيره عندكم

– ظفيره ؟ اننا لم نرها منذ شهور

– منذ شهور ؟

وضحكت العمة

– قبل زواجها كنا نراها كثيرا انت شغلتَها عنا وعن كل احبابها ٠

أحس حمدي بمرارة أنا ؟ لكنه تمالك نفسه قال لها

– سمعت بأن ابنتك سميره جاءت من الكويت

– الحق انها أرسلت إلينا تخبرنا بأنها ستأتي للولادة عندنا ٠ وكان المفروض ان تصل أول أمس ، حسب وعدها لا أدري ما الذي أخرها ٠

« ٤ »

تراكمت في رأس حمدي الاسئلة والافكار كلهـا يؤدي إلى الضياع • ما الذي يجري ياربي ؟ لماذا تكذب ظفيره ؟ من أين لها تلك الحلة الجديدة الغالية ؟

احس بأن حركة الباص بطيئة بطيئة وكان هو متعجلا الوصول إلى بيته ، ليسمع من ظفيره تفسيرا لكذبها وتناقضاتها•

« ٥ »

حين وصل بيته أخيرا كان يرتجف من فرط ما انتابه من انفعالات أرهقت أعصابه حتى إنه وجد صعوبة في ايـلاج المفتاح في ثقب القفل وإدارته وفتح باب الدار

مع ذلك لم ير ظفيره • انها ليست في البيت

قالت له الجارة

ـ أخبرتني بأنها ذاهبة بزيارة لعمتها

ـ أية عمّه ؟

ـ التي جاءت ابنتها من الكويت

ـ متى ذهبت بالضبط ؟

ـ منذ ساعة •

لقد غادر تلك العمّة قبل ربع الساعة !

واندفع خارجا يطلب تأكيد فكرةٍ خطرت له بالحاح ممرض

بحث عن هاتف في الطريق وجده على باب بقالية ٠أدار رقما حفظه بذاكرته منذ شهور سمع صوت رجل يستجيب من الطرف الآخر

سأله حمدي

ـ أهذا متجر منير بك ؟

ـ نعم

ـ من فضلك ، منير بك موجود ؟

ـ لا ، غادر المتجر وسيعود بعد قليل

ـ متى غادر المتجر ؟

ـ غادره قبل ساعة ٠

وأغلق حمدي الهاتف ٠ ومشى ٠

« ٦ »

مشى حمدي ، لايجرؤ على النظر حوله ، منكس الرأس فمن حوله كان رجال ونساء وأطفال من أهل حيّه يعرفونه ويعرفون ظفيره أراد الهرب من محط أنظارهم من الاحساس بوطأة مهانة ساحقه تفور في شرايينه ـ في الوقت نفسه ـ دماء الغضب والحقد تسيطر عليه فكرة صماء شرسة ، تحاول افتراسه بوحشية قاسية « ظفيره في حضن رجل آخر الآن ! »

لماذا ؟!

لماذا يا إلهي ؟

ورفع عينيه إلى السماء ، فسقطت فيهما الشمس ،حارقة، أغمضهما وانتابه دوار وفي هذه اللحظة رآها رأى ظفيره عارية تحترق ، يتثنى جسدها الرائع متوهجا باللهب المتصاعد منه وهي تصرخ مستغيثة دون صوت ، تتأوه دون صوت لكن حمدي لم يتقدم لاغاثتها أدرك ان النار قد وصلت إلى عظامها فراح يتفحص آثار منير بك يريد أن يغمد سكينا في قلبه

دمشق ١٦ / ٥ / ١٩٧٣